

العدد الرابع عشر / السنة الرابعة / (يناير - مارس) ٢٠٠٩



المحتويات

EGYPT
7, el-Barameka st, off al-Tayaran st. al-Hay al-Saabi
Nasr City-Cairo/EGYPT
Tel-Fax: +20222631551 Mobile: +20165523088

TÜRKİYE
Emniyet Mahallesi, Huzur Sokak, No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/TÜRKİYE
Phone: +90(216) 318 60 11 Fax: +90(216) 422 41 40

USA
The Light, Inc.
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset,
08873 New Jersey, USA
Phone: +1 732 868 0210 Fax: +1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
AL Watania Distribution الوطنية للتوزيع
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
GSM: +966 504358213

SYRIA
GSM: +963 944 355675

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Tel: +212 22 24 92 00

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
GSM: +213 770 625650

SUDAN
Tel: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Tel: +971 266 789920



صورةُ قلَميۃ لرجل القلب

فتح الله گولن

رجـــل القلب بأفقه وإيمانه وتصرفاته يمثل بطولة الروح والمعنى. إن عمقه وسعته ليسَا من ناحية معلوماته ومكتسباته، بل بغنى قلبه وصفاء روحه وقربه مـــن الحق تعالى. فقيمة المعـــارف المطروحة أمامه كعلوم هي بنسبة إرشـــاد الإنسان إلى الحقيقة، أي إن المعلومات التي لا تساعدنا على فهم حقيقة الوجود والأشياء والإنسان، والمعارف النظرية التي لا تحمل فوائد عملية، لا قيمة لها عنده.

بطل القلب الحي يكون مبرمَجا حسب الحياة القلبية والروحية، عازما على البقاء بعيدا عن كل المســـاوئ المادية والمعنوية، حذِرا على الدوام من الرغبات الجسدية، يقظا ومستعدا لمصارعة الحسد والحقد والكراهية والأنانية والشهوات. كل ذلك مع تواضع باهر ونكران للذات عظيم. فهو يبذل قصارى جهده دوما لمســـاندة الحق ونشـــره في كل مكان. وهو رمز الإيثار يتأجج شوقا لكي ينقل إلى الآخرين ما أحسّه وشعر به في عالم الملك والملكوت.

هو صابر ووقور، وبدلاً من الكلام الكثير، تراه يعيش حسب عقيدته وإيمانه. وهو رجلُ حركة ودعوة وإيمان ويستحق بذلك أن يكون قدوة حســـنة لغيره بمعيشته وبســـاطة حياته. وهو في حركة دائبة لا تعرف الفتور. يعلّم الســـالكين آداب التوجه إلى الله والفرار إليه... إن ســـبرتَ أغواره رأيت نارا تتأجج فيها... وهو عندما يحترق لا يشكو ولا يُظهِر أي غم أو حزن، ولا يفكر

في إظهار أي لاعج مـــن لواعج الألم لغيره. يحترق بهدوء ويدفئ أرواح كل من يلجأ إليه، وينفث فيها الحرارة.

فرجل القلب يتطلع دوما إلى الماوراء.. هو رجل الإيمان المرتبط برضا الحق تعالى، الدائم السير، يقطع المسافات تلو المسافات مثل جواد أصيل لا يعرف الفتور حـــتى يبلغ هدفه ومبتغاه، دون أن يلتفت إلى شيء من حطام الدنيا.

إنه رجل الحقيقـــة الذي لا يفكر في قيامـــه وقعوده، وفي حركاته وســكونه إلا في الحق وكيف يقيمه في الدنيا وينشره. وهو مســتعد بكل رحابة صدر للتخلي عن كل رغباته ومطالبه في هذه الســبيل. يفتح صدره للجميع، يحتضن الجميع بشفقة، ويظهر في المجتمع على الدوام مثل ملاك قد فتح أجنحة الحماية والصيانة على الجميع. ومع هذا فلا يبتغي أجره إلا عند الله تعالى. يحاول في جميع تصرفاته وسلوكه أن يكون منسجما مع الجميع. لا يشـــاكس أحدا ولا يضمر عداوة لأحد. ومع وجود وجهات نظر خاصة به في بعض الأحيان حسب مهنته ومشربه، إلا أنه لا يدخل في أي منافسة أو احتكاك مع أحد، بل على العكس يحب كل من يقدم خدمة لدينه ووطنه وغايته السامية، ويؤيد ويشجع كل صاحب عمل إيجابي. ويبذل عناية خاصة في هذا التأييد لكي يبقى موقراً لمنـــزلتهم ولوجهات نظرهم.

رجل القلب يبذل في جميع ما يقوم به من فعاليات وما يبذل من جهـــود اهتماماً خاصّاً لتوفيق الله تعـــالى وعنايته ورعايته. ويبحث على الدوام عن السبل التي توصله ليكون أهلا لمثل هذه الرعاية والعناية. لذا فهو يبذل قصارى جهده للوحدة وللجماعة التي ذكر القرآن الكريم أنها وسيلة لجلب عناية الله. وهو يسارع لعمل مشـــترك مع كل من يمشي في صراط مستقيم، بل كثيرا ما يســـلك طريقاً رغم طبعه ونزعاته ضمن هذا الإطار من سياسة الوفـــاق التي ينتهجها، وهو يعلـــم أن الرحمة في الترابط، وأنه لا يمكن تحقيق أي شـــيء بالخلاف والتفـــرق، لذا يحاول أن يجمع جهود كل من حوله ليكون قريباً من شآبيب رحمة الله وعنايته.

بطل القلب عاشـــق للحق تعـــالى، متلهف لنيل رضاه، ومن ثم نراه يربط جميع حركاته وســـكناته في كل أمر وفي كل ظرف وحين برضاه تعالى، ويبـــدي حرصا في هذا الصدد ولو أدى به إلى الموت، وهو مستعد لأن يضحي بكل شيء للوصول إلى هذا الهدف. مستعد للتخلي عن كل أمر أو كسب دنيوي وأخروي.

لا يوجد في عالم رجل القلـــب ادعاءات أمثال "فعلتُ أنا"، "أنجـــزت أنا"، "نجحت أنا"، فهو يفرح بكل إنجاز حققه آخرون وكأنه هو الذي أنجزه، ويعد نجاحات الآخرين نجاحا له، ويتبعهم تاركا لهم شـــرف الريادة ومرتبتها. بل يقوم بأكثر من هذا، فهو يرى أن الآخرين سيكونون أكثر لياقة ونجاحا، لذا يهيئ لهم جوّاً أكثر أمانـــا وراحة في أداء خدماتهم وجهودهم، ثم يتأخر خطوة إلى الوراء ليكون فرداً عاديا ضمن الأفراد الآخرين.

ونظراً لكون رجل القلب مشغولاً بعيوبه ومجاهدا لنفسه على الدوام، فهو لا ينشـــغل بعيوب الآخرين ونقائصهم، بل لا يجد فرصة للانشـــغال بها. ولا يكتفي بعـــدم تعقب أخطاء الآخرين وعيوبهم، بل يحاول توجيههم إلى آفاق أرحب بالابتسامة، ويدرأ بالحسنة السيئة، ولا يفكر بإيذاء أي شخص وإن تعرض خمسين مرة للأذى، فهو بذلك أنموذج مثالي للإنسان الفاضل.

يرى رجل القلب أن قضاء عمره في محور إطار الإيمان الكامل وتزيينه بالإخلاص هو قضيته الأولى. وهو رجل حقيقة، لذا تراه قد نذر جميع أفكاره ومشاعره وسلوكه في سبيل رضا الله تعالى، بحيث لو أعطيته الدنيا وما وراءها لما استطعتَ زحزحته عن هدفه، بل حتى لو أعطيته الجنات لما انحـــرف عن وجهته وعن طريقه.

لا يدخل رجل القلب في أي منافســـة مع الذين يشـــاطرونه فكره وطريقه، ولا يشعر نحوهم بأي حسد. على العكس يحاول إزالة عيوبهم وتكملة نواقصهم، ويتصرف تجاههم تصرف عضو الجسد نحو سائر الأعضاء بروح الإيثار تجاه رفقائه في كل ما هو معنوي أو مادي من مقام ومنصب وجاه وشهرة ونفوذ، ويدفع بهم إلى الصفوف الأمامية بينما يتراجع هو إلى الوراء، ليكون دلاّلاً لنجاحهم ومصفقا لهمّتهم وفوزهم وفرِحا بهم فرح من يحتفل بالعيد.

ومع أن رجل القلب يبقى مرتبطاً بمنهجه في العمل وحسب اجتهاده ومزاجه ومذاقه إلا أنـــه يبقى على الدوام محترما أفكار الآخرين ومناهجهم موقرا لهم، ومستعدا للعيش المشترك معهم، ولا يفتر عن البحث عن طرق التعاون المشـــترك مع من يقاسمهم الفكر نفســـه. يبحث عن طرق التعاون والمشاركة هذه ويطور معهم مشاريع العمل المشترك واضعا كلمة "نحن" بدلا عن "أنا"؛ بل يكون مستعدا للتضحية بسعادته برحابة صدر في سبيل إسعاد الآخريـــن دون أن ينتظر من أحد جزاءً ولا شـــكورا، بل يعد مثل هذا الانتظار دناءة وســـقوطا يترفع عنه، لذا نراه يبتعد عنه،

ويهــرب منه مثلما يهرب من العقارب والثعابين، ويهرب من الرغبة في الصيت والشــهرة، ويحاول أن يكون منسيا.

لا يعتدي رجل القلــب على أحد، ولا يقابل الاعتداء بالاعتداء، ولا يفقد اعتداله حتى في أحرج الظروف، ولا يتوانى أبدا عن القيام بكل تبعات رجل القلب. فهو يقابل الإســاءة بالإحسان دوما، لأنه يعد مقابلة الإســاءة بالإساءة من عمل الأشرار، لذا يتصرف كمثال لرجل الإحسان.

يعيش رجل القلب خط القرب من الله (أي الولاية) في ظل القرآن والســنة، وفي إطار من شــعور التقوى والعزم والإحســان. وهو حذِر على الدوام من المشاعر التي تميت القلب كالأنانية والغرور وحب الشهرة. وهو يعزو كل إنجاز نُسب إليه وكل نجاح تم على يديه إلى العزيز القدير حيث يقول: "كل من عند الله" فيُرجع كل شيء إلى صاحبه، وتراه يتحرج من استخدام كلمة "أنا" ويفضل عليها كلمة "نحن" في كل ما يتعلق بالإرادة الإنسانية.

لا يخاف رجل القلب من أي أحد، ولا يضطرب ولا يرتبك أمام أي حدث، بل يستند إلى الله ويتوكل عليه، ويتشبث بالسعي فيصل إلى التوفيق، ولا يتراجع أبدا عما يعتقد أنه حق.

لا يحمل رجل القلب ضغينة نحو أحد، ولاسيما ممن ارتبطوا بالله تعالى وساروا في طريقه. وعندما يرى رفاق دربه ضمن عمل ســيء فلا يتخلى عنهم ولا يهتك الستر ولا يخجلهم، بل ربما يحاسب نفسه ويرى أن معرفته بأي زلة من زلات أصدقائه ربما كانت عيباً له. يحذر رجل القلب من أي ســوء ظن بالمؤمنين في المسائل المقابلة للاجتهاد والرأي، بل يحسن الظن بهم في كل ما يرى ويسمع، ولا ينــزلق إلى ظنون سلبية.



رجل القلب هــو رجل الحقيقة الذي لا يفكــر في وقيامــه وقعــوده، وفي حركاته وسكونه إلا في الحق وكيف يقيمه في الدنيا وينشره. وهو مستعد بــكل رحابــة صدر للتخلــي عن كل رغباتــه ومطالبــه في هــذه السبيــل. يفتــح صــدره للجميــع، يحتضــن الجميــع بشفقة، ويظهــر في المجتمع على الدوام مثل ملاك قد فتح أجنحة الحمايــة والصيانة على الجميع. ومع هذا فلا يبتغي أجره إلا عند الله تعالى.

يعلم رجل القلب وهو يقوم بكل فعالياته وحركاته بأن هذه الدنيا ليســت بدار جزاء، بــل دار خدمة، لذا يؤدي ما عليه من مســؤوليات وخدمات ضمن نظام دقيق جدا، ويعد الانشــغال بالنتيجة شــيئا ينافي التوقير لله تعالى. وهو يعدّ خدمته للدين وللإيمان وللإنسانية أكبر وظيفة له في طريق الحصول على رضا الله تعالى. ومهما أنجز من أعمال كبيرة فلا يجعل لنفسه أي نصيب مادي أو معنوي منها ولا يفكر في هذا أصلا.

لا يقع رجل القلب في اليأس أبدا من سوء النظام الموجود، ولا يهتز أبدا حتى وإن وقف الناس أجمعون ضده، بل ينهض بعزم أمام جميع المصاعب وهو يصر على أسنانه متحملا لأنه يدرك أن "هذه الدنيا ليست بدار شكوى بل دار تحمل"، يصبر ويبحث عن طرق بديلة لحل المشــاكل التي تعترض طريقه ولا يفتر عزمه ولا إقدامــه حتى في أحلك الظروف، بل يقوم بإنتاج إستراتيجيات مختلفة.

وختاما نقول ونذكّر بأنه في أيامنا هذه التي يســتهان فيها بالقيم الإنسانية، وتتراجع فيها الأفكار الدينية، ويطغى في جميع الأرجاء ضجيج الفارغين واللاهين فإننا في حاجة إلى أمثال هؤلاء من رجال القلب كحاجتنا إلى الهواء والماء. ■

(*) الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

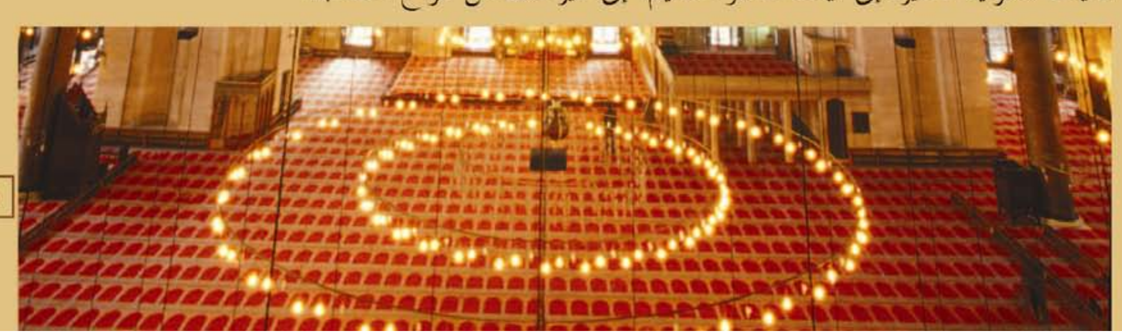


فاعلية القرآن في صناعة الحضارة والإنسان

د. محمد جكيب*

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩).

تتضمن هذه الآية الكريمة دلالات كثيرة تؤكد أن الله قد أخذ على نفسه حفظ هذا الكتاب المنزل على رسوله ﷺ، وهو كتاب يتضمن خطابه تعالى لكافة البشر، من منطلق أن رسالة محمد ﷺ رسالة عالمية تبشر الإنسان في كل مكان. وكونُ هذه الرسالة كذلك لابد من دعمها بخطاب حي منفتح على كل الأزمنة والأمكنة، فالحفظ لا يعني حماية القرآن من عبث العابثين فحسب، وقد حاول العابثون ذلك وعجزوا منذ نزول أول آية على الرسول ﷺ. وما تزال المحاولات مستمرة، إذ يظهر في كل زمن عابثون ومفسدون يستغلون ما توفره لهم الفترة التاريخية من أسباب العبث والإفساد ولكن دون جدوى، إذ لم ينجح هؤلاء في النيل من الذكر لأن الله حفظه من كل ذلك وأعظم من ذلك. لكن الآية الكريمة تختزن للحفظ مع ذلك مدلولا أكبر ومعنى أوسع، تدل عليه كل عناصر هذا الكون الفسيح ومخلوقاته المتعددة. فالحفظ يتضمن أبعادا متنوعة هي باختصار: انفتاح القرآن على كل العصور والأزمنة، ومحافظته المستمرة على شبابيته، بل إن الحفظ لا معنى له ولا جدوى في ظل أنّ القرآن هو خطاب الله لخلقه عبر الأزمنة والأمكنة، وهو مخاطبة مستمرة من الله تبارك وتعالى لخلقه في كل آن وأوان. والحفظ قد يوحي بأن الله تبارك وتعالى قد خاطب ثم توقف عن الخطاب. لكن خطابه للبشر مستمر دائما لا ينقطع، وشواهد هذا متعددة ومتنوعة لا تنقطع، فمن الآيات الكونية الكثيرة إلى آيات الذكر الحكيم، إلى غير ذلك من أنواع الخطاب.





الإنسان والفاعلية

تبدو الآية وكأنها توجه الخطاب للمستقبل ولإنسان هذا المستقبل، ففي القرآن مقومات معنوية وأنوار مشـعة لا تنقضي تعم الزمن كلـه، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فما على الإنسـان سوى إدراك أبعاد تلك الأنوار وحقيقتها ليحولها إلى فاعلية يظهر تأثيرها في الواقع.

لكن هذه الفاعلية متصلة شديد الاتصال بعنصر مهم في المعادلة وهو الإنسان، إذ هو العنصر الفعال القادر على تحويل هذه الطاقة المعنوية الكامنة في القرآن الكريم بما جهزه الله به من أدوات التفكر والتدبـر والقدرة على الفعل والتأثير، شـريطة عدم تعطيل هذه الأدوات أو توظيفها في غير مكانها، أو بعدم توفير الشروط اللازمة والشـروط الصحية الضامنة لفعالية المنحة الإلهية فعالية إيجابية.

إن الآية الكريمة تدل على أن القرآن الكريم منفتح ومحفوظ لا بمعنى أن الأقدار الإلهية قد صانته وستصونه في المستقبل من التلف فحسب، بل هو محفوظ بما يقدمه الإنسان الفعال من فاعلية لهذا الذكر. فالقضية متصلة شديد الاتصال بالإنسان الفعال.

المتأمل في السيرة النبوية الشـريفة، وفي تاريخ بناء الحضارة الإسـلامية وخاصة ما اتصل بالمقومات التأسيسـية الأولى التي قامت عليها هذه الحضارة، سـيلاحظ بـأن المنهج النبوي ركز فاعليته الأولى على إيجاد الإنسـان الفعال. فقد كان هم الرسول ﷺ في مسـتهل الدعوة متجها إلى وضع أسس حضارة التوحيد وبناء مقومات الدولة، وكان همه ﷺ منصبا على بناء الهمم العالية القادرة على تحمل مسؤولية قيادة قطار الحضارة وبنائها، والهمم القادرة على وضع القاطرة على السكة القويمة، التي تستطيع جر قطـار البناء الحضاري والقادرة على اسـتيعاب مقومات المنهج القرآني في بناء الإنسان. وبعبارة أخرى لقد كان هم الرسول ﷺ بعد تلقيه أمر ربه منصبا على إيجاد الطاقم البشري الذي سيحمل مسؤولية الأمانة الكبرى وفق المنهج الرباني القرآني. ولذلك كان الرسول ﷺ يرجو الله دائما أن ينصر الله الإسلام بأحد العمرين، يقصد عمر بن الخطاب وعمرو بن هشـام نظرا لأنه كان يعرف بأن جسام الأمور تحتاج إلى مؤهلات بشرية مهيأة نفسيا وفكريا ومعنويا ليعاد صياغتها صياغة تتلاءم ومنهج القرآن.

قد يبدو هذا العامل كافيا وحده لتفسير قضية انفتاح القرآن الكريم وخطابه على أي عصر من العصور وانفتاحه على أسـئلة زمانه. وليس هذا فحسـب، بل إن الحفـظ متصل بمدى قيمة الإنسان وقدرته على تفعيل الملكات التي جهزه الله بها من التفاعل الإيجابي مع هذا الخطاب، فالحفظ مرتبط بمدى وجود الإنسـان.

فإذا كان الإنسـان الفعال تَحقق الحفظُ وتحققت حيوية القرآن الكريم وتحركت طاقته المعنوية المنفتحة وتحققت شـبابيته، وإذا كان هذا الإنسـان الفعال في حالة كمـون، أو عدم تحقق تلك الفاعليـة الإنسـانية كانت النتيجة دخول القـرآن في نوع من السكون المعنوي وغياب الفاعلية.

المفاعلة البشرية والقرآنية

وبعبارة دقيقة إن حيوية القـرآن وفاعلية طاقته المعنوية المتجددة مرتبطة بمدى فاعلية الإنسـان وحيويته وقدرتـه على التفاعل المعنوي مـع القرآن الكريم. ومن هنا فإن منهج النبوة قد انصب على تفعيل هذه الطاقة الفعالة وتنشـئة الإنسان الفعال من خلال أخذه بالأسـباب المؤدية إلى ذلك من وضع للقواعد والأسـس العمليـة والإيمانية الضامنة للنتيجـة، ومن هنا كذلك فإن منهج النبوة هو المنهج الكفيل بصناعة هذه الفاعلية.

الكل يعلم بأن الرسـول ﷺ -وكما أخبرت سيدتنا عائشة رضي الله عنها بذلك- كان قرآنا يمشـي. وهو ما يعني أن روح المنهج النبوي نابعة من القرآن الكريم، فلقد هيأ الله له الأسـباب المعنوية والعملية فكان كما وصفته عائشة رضي الله عنها وكما وصفه عدد من الصحابة رضوان الله عليهم عندما كانوا يسألون عن أخلاقه وعن سـيرته ﷺ. لقد كان الرسول ﷺ حريصا على بث روح القـرآن في الصحابة رضوان الله عليهم جميعا، ليحقق بذلك أكبر مثال للتنمية البشرية عرفها التاريخ وفي زمن قياسي لم يتأت لأمة من الأمم من قبل سوى ما حققه الأنبياء والرسل نظرا لما متعهم الله به من فاعلية.

غيرت روح القرآن الكريم كيان الإنسـان الذي كان يؤثث جنبات جزيرة العرب، فتحولت القبائل الكثيرة المتناحرة المتنافرة المتفرقـة إلى طاقة إبداعية لا نظير لهـا في زمن وجيز. وتحولت هذه القبائل غير المدينة لسـلطان سوى سلطان القبيلة والتسلط والجبروت، إلى كيان واحد يستظل بظل القرآن الكريم.

لقد تكيف العقل المسلم وفق نمط تمركز حول القرآن الكريم، وفـق صورة يمكن الاصطلاح عليها بـ"مركزية القرآن في البناء الحضـاري"، فأدرك هذا العقل أن قيمته في القرآن يسـتمد منه وجوده؛ ففي الوقت الذي تحتاج فيه الحضارات والأمم إلى مئات السنين من أجل بناء شخصية حضارية تنظر إلى المستقبل وتنطلق نحوه، فإن حضـارة القرآن حققت ذلـك في وقت وجيز جدا وقياسـي، إذ تحول المجتمع كله إلى حيويـة تتبنى قيم الحضارة القرآنية وتبشر بها وتنشر قيمها.

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

ما أُحَيْلى البداية

حياتَهما معا يبدءان،
أحلاما وردية يفرشان،
ودا وعشقا يتبادلان،
حتى إذا ابترد الشوق،
وصوّح الورد،
وغشيكما خريف العمر،
فهل على ذلك الود ستبقيان؟
وكؤوسَ المحبة تتساقيان؟
وصفاءَ العشرة تحييان؟
* * *

مركزية المسلم الحضارية

حوّل القرآن الكريم هذا الإنسان من نكرة تنظر إليه الحضارات القائمة آنذاك كالحضارة البيزنطية والفارسية، إلى قوة مركزية مهابة الجانب، وأدرك هذا الإنسان أن سبب هذه النقلة الحاصلة في واقعه المعيش هو القرآن، فترسخ هذا الإحساس في اللاوعي، ثم ما لبث أن نضج وارتقى إلى رغبة أكيدة في الحفاظ على هذه النعمة، ولذلك صار من اللازم البحث عن السبل التي تحميها وتحفظها. وبمنطق المصلحة فإن العقلية المسلمة أدركت أن مصلحتها تفرض عليها الحفاظَ على هذا العنصر الطارئ في حياتها وهو القرآن الكريم. وأوجه الحفاظ عليه متعددة، منها أولا ضرورة التجمل بقيمه.

وتلك قاعدة ضرورية يترتب عليها حصول روح الإنسان الفعال. وتتمثل ثانيا في الحفاظ عليه مما يتهدده، ولذلك فإن أول تحد تَوجّب على الأمة التصدي له هو تحدي الأعاجم بفعل دخول شعوب مختلفة لا تتقن العربية في الإسلام. فقد تنبه المجتمع كله إلى الخطر الذي يهدد القرآن الكريم في عمقه اللغوي، حين صار عدد غير قليل من المسلمين يلحنون في قراءة القرآن وهو الكتاب المتعبد بتلاوته في الصلاة وفي الدعاء، وفي التفكر في ملكوته تعالى، وفي الاتصال بخالق الكون. فهال الأمر جماعة المسلمين، وأدرك كيانهم الجمعي ووعيهم أن وجودهم بكامله في خطر، وأن مستقبل الحضارة القرآنية مهدد، فكان أمرا عاديا أن تتحرك الفاعلية الإنسانية التي أرسى المنهجُ القرآني قواعدَها في القلوب والعقول. فقد أدرك هذا الوعيُ أن لا سبيل إلى المحافظة على القرآن إلا بقدر ما يبدعه من وسائل تضمن حمايته مما يتهدده، وتضمن في الوقت نفسه سبيلا ييسر على من لا يتقن العربية فيتقنها، ويسهل عليه سبيل الولوج إلى المعاني القرآنية، فيتساوى مع باقي أفراد المجتمع في الفضل والمصلحة. فوضعت العقليةُ المسلمة منظومة النحو العربي، فمكنت هذه المنظومةُ المعرفية، المؤسسةُ من أجل القرآن وحوله وانطلاقا منه، مكنت من تحقيق الكثير من المنافع؛ فمن جهة صيغت الأداةُ التي تقي من الخطإ في قراءة القرآن وتلاوته، ومن جهة أخرى وسّعت من نطاق إدراك معاني القرآن ودلالته، ومن جهة ثالثة تحقق الحفظ بوساطة فعالية الإنسان الفعال، القادر على الإبداع بما يجده في كيانه من طاقة معنوية مستمدة من القرآن الكريم. ■

(*) جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الجديدة / المغرب.





❖ أ.د. أحمد عبادي* ❖

الحديث عن المنهج النقدي في القرآن الكريم، حديث يقتضي أن يُقدّم بين يديه ضبط مصطلحيٌّ من أجل إبراز التمايز بين الذي يُراد بالنقد وبالمنهج في هذا السياق القرآني الاستثنائي، وبين ما يُراد بهما في سياقات أخرى.

والحاصل أن الذهول عن هذه القضية يمكن أن يجعل شائبات مفاهيمية كثيرة تشوب البحث والتناول لهذا الموضوع. ذلكم أن السياقات الأخرى التي يُطلق فيها مصطلح النقد ويمارَس، تكون سياقات مؤطرة بمجموعة من النماذج المعرفية "البراديغمات" ومن الثوابت النفسية التي توجّه استعمال هذا المصطلح، أي إن ثمة مجموعة من النماذج الكامنة التي تحدد المقاصد والغايات المتوخاة من العملية النقدية؛ وغير خاف أن كل منظومة لها منطلقاتها ومقاصدها وغاياتها التي تؤطر ممارسة عملية النقد من داخلها، وتصبغها بصبغتها، وهذا في النسق القرآني أبرز.

لن أتناول في هذا المقام تلافيف وتفاصيل البحث المصطلحي اللغوي حول المنهج النقدي، وبحسبي أن أركز على ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنّ النقد يُراد من ورائه تمييز الصالح مما دون ذلك، ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾(الجن:١١)، وهذه قضية بارزة في كل نقد.

الأمر الثاني: أن النقد يمكن أن يكون ستاتيكيا ثابتا كما يمكن أن يكون ديناميا تجاوزيا. فالنقد الستاتيكي هو النقد الذي يمارَس انطلاقا من وحدات قياسية ومعيارية ثابتة، في حين أن النقد الدينامي التجاوزي هو الذي تكون له القدرة على إنتاج وحداته القياسية والمعيارية وفقا للسياقات التي يمارَسُ فيها. غير أن السياق القرآني لا يمكن للنقد فيه أن يكون ثابتا ستاتيكيا، إنّما هو متجاوز ودينامي، بحيث إنّ الإنسان في تعامله مع القرآن المجيد لا يزال في ارتقاء كلّما ظن أنه قد أبصر. فإن هذا الإبصار سوف يجد نفسه متجاوزا بمزيد من الحوار والتعاطي مع الوحي الخاتم، المصدِّق لما بين يديه والمهيمن عليه. وهو ما يجسده مفهوم بليغ في القرآن المجيد، مفهوم الأكبرية ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾(الأنعام:٧٨)، والذي تعبر عنه صيغة التكبير في الآذان والصلاة "الله أكبر" التي يقترن فيها اسم الجلالة بصيغة التفضيل فتفيد أنّ الإنسان ما يزال متجاوزا لذاته حين النطق بهذه الأكبرية في

كل حركة من حركات الصلاة فيكون بذلك في ارتقاء واقتراب دائمين، ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾(العلق:١٩){س}، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾(النجم:٤٢). إن صيغة التفضيل تفيد أن الله ﷻ أكبر ممّا استقر في نفسي عنه سبحانه في اللحظة التي سبقت النطق اللاحق بهذه الأكبرية. ففي السياق القرآني ليست هناك ستاتيكية ولا جمود، وإنما هو التجاوز بإطلاق.

العلوم الاستنطاقية

الأمر الثالث الذي أود الإشارة إليه بين يدي الحديث عن المنهج النقدي في القرآن المجيد هو أنّ الإنسان في حواره مع القرآن الكريم، من أجل القيام والاضطلاع بمهمة النقد هذه، وجَب أن ينتبه إلى أن العلوم التي يتحرك انطلاقا منها، تعد في جُلها علوما اجتهادية، اللهم إلاّ ما كان منها توقيفيا كأبواب الاعتقاد والفقه الثابت المستندة أحكامهما إلى نصوص قطعية الثبوت والدلالة. وما عدا ذلك فمن العلوم الاستنطاقية "ذلكم القرآن فاستنطقوه" كما قال علي رضي الله عنه وأرضاه، أو كما قال سيدنا عبد الله بن مسعود "ثَوِّروا القرآن" أي استخرجوا خيراته، وهي علوم يكون الإنسان في حوار دائم مع الوحي انطلاقا من مؤهلاته ومن أفقه المعرفي هو من أجل اكتشاف مفاتيح جديدة يدخل باستعمالها إلى عالمه الرحيب.

وآية ذلك أنّ الله ﷻ يبين أنّ هذا القرآن جاء ميسرا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧-٢٢-٣٢-٤٠) أربع مرات، ثم في سورة مريم، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾(مريم:٩٧)، وهو تيسير مرتبط بالتدبر، ومرتبط بالنظر المستأنف في الوحي من أجل إنتاج مجموعة من العلوم يمكن أن نصطلح على تسميتها "علوم التيسير".

وبموازاة مع ذلك فالكون فيه ميكانيزمات وآليات أخرى؛ فهو الكتاب المنظور الذي سُخّر في مقابل تيسير القرآن الكتاب المسطور ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(الجاثية:١٣). والإنسان انطلاقا من حواره مع الكون يكتشف علوما يمكن أن نصطلح على تسميتها بعلوم التسخير. وفي مجالات التيسير كما في مجالات التسخير[1] ينطلق الإنسان في إدراكه وتأسيس معارفه من هبة إلهية استثنائية فريدة "المواءمة" أي إنه قد خُلق موائما للوحي، وموائما للكون. ولولا هذه المواءمة لما استطاع أن يتعقَّل الكون من حوله فيسخره انطلاقا من التفكر، ولما كان قادرا على التعامل مع الوحي وبنائيته ليستطيع بذلك أن ييسره انطلاقا من التدبّر.

وهنا تبرز ظاهرة حريّة بالتتبع والرصد، ومفادها أنه بعد إحكام الكتاب الخاتم، وجعله بناءً وترتيلا، حدثت ثورة في مجالات علوم التيسير، ونشأت علوم.. فإنْ نحن تتبّعنا مثلا ما قام به الصحابة الكرام ﷺ والتابعون وأتباع التابعين فسوف نجد أن التعارك والتفارك والتشاحذ كان سمة من سمات البحث في مجالات التيسير البارزة.

فقد كان الإمام أبو حنيفة ﷺ يعجبه ارتفاع أصوات محمد بن الحسن الشيباني وأبي يوسف وزُفر حين يتحمسون أثناء تباحث المسائل والقضايا، ويُسَرُّ بذلك. وكذا الإمام مالك بن أنس، وهذا الإمام الشافعي يقرأ القرآن الكريم المرة تلو المرة أثناء بحثه عن دليل للقياس حتى يستقرّ رأيه على قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾(الحشر:٢)، وكذا أثناء بحثه عن دليل للإجماع. وإن نحن قرأنا كتابه "الرسالة" فسوف نرى نماذج من الحوار الحي والنابض مع القرآن المجيد.

طفرات بين مراحل الجمود

كما نجد أنّ العلماء الذين تلوا قد زادوا وأضافوا وشحذوا آراءَ هؤلاء الأئمة الأعلام وغيرهم ممن نذكر في هذا المقام، إلى أن أتت علينا أحيان من الدهر أصابت فيها هذه الدينامية أضرب من الجمود تخللتها طفرات؛ مثل طفرة العزّ بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ) في "الإحكام في مصالح الأنام" أو طفرة ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) وتلميذه ابن القيم (ت٧٥١هـ) أو طفرة الشاطبي (ت٧٩٠هـ)، وبعد ذلك آخرين مباركين. لكنّها تبقى طفرات، إذ لم يبق البحث بنفس العرامة والاستمرارية التي كان عليها، بيد أنه استمر في مجالات التسخير إلى درجة أنّك اليوم إنْ أنت ذهبت إلى طبيب تريد الاستشفاء وأخرج لك كتاب "الحاوي في الطب" للرازي، أو كتاب "القانون" لابن سينا ليداويك بمقتضياتها فإنّك سترفض، لوعيك أن نقلات نافعة ومقدّرة قد حدثت في هذه العلوم. وهنا وجب التنبيه على أمر هام، وهو أنّ ثمة ثوابت، وأنّ

هذه الثوابت قامت عليها الأدلة، ومن ثم فهي أجزاء لا تتجزأ من علوم الوحي ومعارفه، فهي الأسس التي تحمل البناء كله، ومن ثم فهي لا تدخل في هذا الصدد إلا من حيث وجوب بذل المزيد من الجهد لاستبانتها وفقهها، غير أن هناك في هذه المعارف أقضية ومسائل كثيرة قابلة للاجتهاد والنظر وجب طبعا أن تُقدّر بقدرها في استحضار لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(الإسراء:٣٦).

إذْ أوضحنا هذه الأمور الثلاثة التي تؤطر منهج تعاملنا مع هذه القضية، فإننا نُريد بعون الله أن نتناول المنهج النقدي في القرآن الكريم، من مدخل واحد سوف نقتصر عليه للضرورة وللإكراهات المقامية وهو "مدخل التصديق والهيمنة". فمع أن هناك آيات كثيرة في القرآن المجيد تتحدث عن التصديق، إلا أننا لا نجد إلا آية واحدة في سورة "المائدة" تشتمل على التصديق والهيمنة مقترنين، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(المائدة:٤٨). وهذا المدخل لم يعط بعد حقه من الاستكشاف ومن البحث لإبراز خصيصة الاكتمال في الوحي الخاتم، والتي جاءت إليها إشارات واضحة في كل من القرآن الكريم والسنة المطهرة.

الكتاب المبين

ففي القرآن نجد كلمة "أحسن" في قوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾(الزمر:٢٣)، وفي قوله سبحانه: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(الزمر:٥٥)؛ تدلّ على أن هذا الوحي قد أذن منزله بارتقائه إلى مرحلة أصبح فيها الوحي الأحسن والأمثل والأكمل. وهذا هو الذي يبرز مثلا من خلال تسمية كتاب نبي الله موسى وأخيه هارون عليهما السلام ﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾(الصافات:١١٧)، في حين أن القرآن المجيد سمي كتابا مبينا ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾(المائدة:١٥)، أي إنه قد وصل إلى درجة الإبانة المطلقة.

وفي السنة نجد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يُشبّه النبوة كلها بالبناء المكتمل أيضا في قوله عليه الصلاة والسلام:

"إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلاّ وُضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين" (رواه البخاري).

وجهتا التصديق والهيمنة

إن آلية التصديق والهيمنة في القرآن المجيد لها وجهتان: الوجهة الأولى إزاء الكتب السالفة؛ فهناك تصديق لما صحّ من هذه الكتب ثم هيمنة عليها في تكامل تامّ معها. والوجهة الثانية إزاء ما يمور ويعتلج في حياة الناس وارتفاقاتهم من ممارسات وما هو مستقر فيها من أعراف. والتصديق في هذه الوجهة عبارة عن إقرار الصالح من كل ذلك بالسكوت عنه أو الثناء عليه، وتغيير الطالح بالحديث عنه وكشف مساوئه.

وتتم الهيمنة في القرآن الكريم في اتجاهات متعددة، وهي اتجاهات كلها تجاوزية غير إستاتيكية. وهي تجاوزية تتجلى من خلال التوسعة مع الاحتفاظ على كل القوة التي تستبطنها الحقائق الموسّعة، ويجري ذلك بطريقة متنامية، إذ بعد كل مرحلة من مراحل الهيمنة، يبنى على الحقائق الجديدة لكي تتم الهيمنة بها بدورها على مفاهيم وحقائق مستقرة أخرى وتتم توسعتها، لكي تشمل أبعادا أخرى لم تكن تشملها في مرحلة الخصوصية؛ لأن الوحي في المراحل السابقة عن نزول القرآن المجيد كانت له خصوصيته، إذ كان يُبعث الرسول النبي من أجل هداية الخلق وإرشادهم إلى الصواب ضمن السياقات التي يوجد فيها ووفق توازنات معينة. فعيسى عليه السلام -على سبيل المثال- يأتي في وقت قد غرقت فيه أمة بني إسرائيل وانغمست في العالم.[٣] فجاء بهذه الدفقة الروحانية من أجل انتزاع وانتشال أمته وجذبها الشديد لتخليصها من هذا الانغماس، وقد كان أفق دعوته وهدايته عليه السلام متسقا مع أزوف زمن بعثة نبي الختم ﷺ، وظل هذا الأفق مفتوحا كما يتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(الصف:٦). إذ هو ﷺ الرسول الذي سوف يُحدث التوازن المنشود. فنحن بصدد تخطيط وتصميم رباني يقوم على التكامل في الأدوار بين الأنبياء: الجذب من لدن عيسى عليه السلام كان قويا جدا في انتظار رسول يأتي من بعده اسمه أحمد ليُحدث التوازن المطلوب. فبينما كانت اليهود لا تسجد لتكون صلاتها -تبعا لذلك- جلّها وقوفا، جاء عيسى عليه السلام فنقلهم إلى السجود لتكتمل مظاهر العبادة مع مجيء الرسول المبشّر به أحمد، صلى الله عليه وعلى آله وسلم الذي سيضيف الركوع إلى كل ذلك تصديقا وهيمنة.

إن تجاوز التأرجح بين هذين القطبين (قطب الرهبنة، وقطب التكاثر) يندرج ضمن مفهوم التوسعة الذي تتجلى من خلاله الهيمنة، وهو تجاوز يستكمل أبعاده ويتم، بإضافة مفهوم الميزان

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(الرحمن:٧-٩)، وهو مفهوم نقف على سريانه في كل مفردات الأداء الحضاري الإسلامي من خلال تأطير وتوجيه رائعين بالآيات والأحاديث المتكاملة. تتم الهيمنة أيضا من خلال "الضبط التأويلي" بتحديد أصوله وقواعده، وتبيان موقع النص والعقل ودور الإنسان ومسؤولية العالم؛ حيث يقوم القرآن المجيد من خلال هذا الضبط بتنقية ما اعترى العقل الجماعي المسلم بسبب تسرب بعض ما كان في الأمم السابقة بفعل التداخلات التي تقع من الناحية المفاهيمية والانكسارات المعرفية التي تحصل تحت تأثيرات اجتماعية أنثروبولوجية وأخرى تاريخية.

كما نجد أن الهيمنة في القرآن المجيد تتجلى من خلال فتح المفهوم، وفتح المعتقد بطريقة تجعلهما مستمرين شاملين مستوعبين لكل عصر ولكل مصر؛ فتلتقي الهيمنة بهذا المعنى مع خصيصة الشمول والاستيعاب في القرآن الكريم.

الكلمة المفتاح

وفيما يلي سوف نرصد منهجية عمل آلية الهيمنة في القرآن الكريم باعتبارها من مكونات منهجه النقدي من خلال كلمة مفتاح هي كلمة "الربّ".

إن القرآن عبارة عن ترتيل، وهو الترتيل الذي يشبه بيت الرُتيلاء التي تنضُد وتنسّق وتُحسّن البناء بطريقة تقوم على التفاضي والاتصال المطلق بين كل مكوناته (Web)؛ بحيث يكون المتعامل مع القرآن المجيد وفق هذا النموذج من المقاربة، حالاّ مرتحلا في كل حين منتقلا بين أرجاء القرآن المجيد كما قال عليه الصلاة والسلام: "أحب العمل إلى الله تعالى الحالّ المرتحل"، قال: وما الحالّ المرتحل؟ قال: "الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره، كلما حلَّ، ارتحل" (رواه الترمذي والدارمي). وهذا المفهوم هو الذي ركّز عليه المفسرون حين قالوا: "ويفسر بعضه بعضا"، ذلك أن أول تفسير للقرآن المجيد هو عين تفسيره لذاته.

حين نأخذ كلمة "الرب" في القرآن الكريم سوف نجد أنها تنفتح على أبعاد كثيرة. فالقرآن قد نزل على العرب وهم يستعملون كلمة "الرب" إزّاء هبل واللات والعُزّى، وقد عدّ العادّون حوالي ستين وثلاثمائة صنما حول الكعبة. وكلمة "الرب" كانت تنسحب على هذه الآلهة بشكل "أتوماتيكي"، وإذا كانت كلمة "الرب" مشتقّة من ربَّ يَرُبُّ، أي باشَر يُباشر، وأَشرف على المصالح يُشرف، واعتنى يعتني إلى غير ذلك من المعاني[٣]، فإننا نجد أنّ مفهوم الربوبية يَبرز في القرآن المجيد باعتباره أيضا من الأمور التي تقوم بدور اللّحمة والسدى في مجتمع معين وإن بباطل، فرعون مثلا حين يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾(النازعات:٢٤) يبرز باعتباره يمثل لُحمة المجتمع من خلال توحيده لهذه الأمة من الناس، ولكن بشكل ضال بفعل هذه الربوبية المدعاة، ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾(طه:٧٩)، وهو مثال قد أعمل فيه القرآن المجيد آلية الهيمنة في اتصال بمفهوم الربّ لتوسعته وتجاوز واقعه في الأذهان نحو ما هو عليه حقيقته، أي نحو التوحيد، فبعد ادعاء فرعون أنه رب المصريين الأعلى ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾(النازعات:٢٤)، نجده ينتقل بفعل اللقاء المستأنف مع موسى عليه السلام إلى السؤال عن رب العالمين ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(الشعراء:٢٣) فيجاب: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾(الشعراء:٢٤)، لكي يختم مساره الجحودي بالاعتراف -ولات حين مناص- بما قرره نبي الله موسى عن الربوبية حين قال وهو يغرق: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾(يونس:٩٠)، كل ذلك يتم في إطار من الهيمنة المتصاعدة، ليصل في أمّ القرآن سورة الفاتحة، إلى هذا المفهوم العظيم الذي هو ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، لدرجة أنّ هذا الذي يبرز -وإن في سياق الضلال- باعتباره توحيداً ولُحمة وسَدى في هذه المجتمعات، نَجده لا يُفقد بل نجده يصحّح وينّمى إلى درجة يُصبح معها مفهوم الربوبية "ربّ العالمين" قابلا لاستيعاب الكائنات كلها والأمم كلها، والشعوب كلّها، ويدخل في منظومة قرآنية بامتياز، هي منظومة التعارف: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:١٣). ولكن قبل أن يصل القرآن المجيد بهؤلاء -وبالعالمين من خلالهم- إلى هذه الدرجة وإلى هذا المستوى نرى سيرورة تجاوز الأرباب الزائفة المرصوصة حول الكعبة بالردّ إلى رب هذه الكعبة والذي هو صاحب المنن والنعم على أم القرى وما حولها من خلال قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾(قريش:٣-٤)، ثم يكون الاستيعاب تدريجياً بحيث نجد التصديق والهيمنة بعد أن تمّا في هذه الاتجاهات كلها يتناميان عبر الآيات لكي يوصلانا إلى هذا المفهوم البارز الواضح المستوعب الكبير والشامل، مفهوم "ربّ العالمين" الذي يستقطب هذه الأبعاد كلّها ولكن بطريقة بنائية وتدريجية، حتى يصل بالإنسان إلى حيث يريد أن يوصله

منـــزّل القرآن المجيد ﴿أَحْسَن الْحَدِيثِ﴾(الزمر:٢٣)، ﴿أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(الزمر:٥٥).

إن البحث في مســـألة الهيمنة في القـــرآن يُفضي بنا إلى آفاق في غاية السعة والجمال، وقد قمنا الآن بالبحث في كلمة واحدة ومصطلح واحد: "الربّ"، ورأينا كيف أن القضية اتسعت إلى أن وصلت إلى مفهوم ســـام هو "ربّ العالمين"، لكي ينفسح المجال بعد ذلك إلى "الرحمن الرحيم"، انســـيابا نحـــو المصور، الباري، والقدوس إلى غير ذلك من الأسماء الحســـنى والـــتي كلها تُلقي إضاءات على مفهوم "الربّ".

وبالتتبع ســـوف نجد أنّ كل البنائية الـــتي في القرآن المجيد سوف تُنسج حول هذا المفهوم بسعته ومداه الجديدين كما برزا في أمّ القرآن ثم في سائره، لكي تُمنح الأمة قِبلتها وتُمنح وجهاتها المتعددة التي تُفضي بها هذه القبلة بطريقة متجددة وغير متناهية.

منهجية التصديق

وجبت الإشارة هنا إلى أنّ ثمة خمسة شروط لابد من مراعاتها في أفق إعمال أوفق لمنهجية التصديق والهيمنة واستكشافٍ أدقّ لمعالمها:

الشرط الأول الأساس هو شرط اعتقاديّ بامتياز؛ اعتقادي بحيث يعتقد الباحث اعتقادا جازما أنّ القرآن المجيد كلام الله ﷻ ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾(فصلت:٤٢)، ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٣٨)، ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾(النحل:٨٩)، فتتوفر عنده ضمن هذا الشـــرط مجموعة من المنطلقات التي تُلزمه بالجدّية القصوى وهو يبحث في القرآن المجيد، وتُلزمه بأن يحشد كل طاقاتـــه وكل نباهته، وأنْ يتوفّز كل توفّز قبل أن يدخل إلى عالم القرآن المجيد، فيكـــون توفّزه أكبر من توفّز الباحث الذي يدخل إلى مختـــبره، ومن توفّز الطبيب الـــذي يدخل إلى عملية جراحية مما من شـــأنه أن يجعل نتائج البحث أبرك إن شـــاء الله.

الشـــرط الثاني: إنْ أردنا أنْ نبحث في قضية الهيمنة بطريقة تأسيســـية، وجب أن ننظر في القـــرآن المجيد باعتبـــاره بناء، وأن لا يتـــم إغفال هذه البنائية أوالذهـــول عنها، إذ هما إغفال وذهول مُدخِلان في اللـــوم الموجّه إلى ﴿الَّذِيـــنَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾(الحجـــر:٩١)؛ وإســـقاط في التعضية والتفريق والتمزيع في القـــرآن المجيد وفي عـــدم الدخول إليـــه باعتباره بناءً متماســـكا، ترتيلا ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(الفرقـــان:٣٢) ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾(المزمل:٤) أي اعتبر أيها المتعامل مع القرآن المجيد هذه البنائيـــة ولا تُهمل منه كلمةً ولا حرفا.

وهنا أريد الإشارة إلى نموذج مفاهيمي معرفي قد تسرب إلى عقول بعض علمائنا فأصبحوا بمقتضاه ينظرون إلى القرآن باعتبار أن آياته التي تحتها عمل لا تتجاوز الخمسمائة آية على أكثر تقدير، ويســـمّونها آيات الأحكام، من مجموع عدد آياته الستّ وثلاثين ومائتين وســـت آلاف (٦٢٣٦)، فأيـــن ذهبت الآيات الأخر؟ وما هي تجلياتُ ربانيـــة مصدرها؟ وما هو الهدى الموجود فيها؟

مقابل هذا المنظور التي يســـتبطن -بدون وعي- الكثير من الانتقاء ومن الإقصاء المسبق، نجد أنّ كل حرف من القرآن المجيد فيه هدى وفيه رشـــاد وفيه نور، ولعل هـــذا من الحكم الكامنة وراء وجـــود الحروف المقطعة في فواتح بعض الســـور. وبالتالي فحين نؤمن ونسلّم بأنّ القرآن بناء، سوف نراجع وننقد مناهجنا القائمة في أفق المواءمة المنهجية مع هذه البنائية المباركة.

الشـــرط الثالث: وهو فرع عن الثاني، ومفاده وجوب تتبع المصطلحات قيد الدراسة في كل مواطن ورودها، واعتبار السياقات التي يتم فيهـــا هذا الورود قبل أي تعريـــف لهذه المصطلحات.

الشرط الرابع: ضبط الضمائم، فإذا تم الذهول عن حقيقة أنّ الكلمة في القـــرآن المجيد تكون لها ضمائم كما تكون لها نظائر تلقي عليها أضواء إضافية، وإنْ لم يتم النظر في كل هذه المرافقات والمحتوشات التي تُحيط بالكلمة المصطلح فإن الباحث وإن اعتبر السياق ونظر في كل الشروط التي سلفت قد يفوّت الشيء الكثير.

الشـــرط الخامس: أن يكـــون لدى الباحـــث وضوح في القضايـــا التي يريد أن يســـتنطق بخصوصها القـــرآنَ المجيد في علاقته بالهيمنة، إذ حين اتضاح هـــذه القضايا فإنها تكون بمثابة التضاريـــس الفكرية والنفســـية والوجدانية التي من شـــأنها أن تمكّن الدارس من التقاط ما يتعلـــق بالمواضيع المبحوث فيها من إشارات؛ وإلا فسوف تغلب على البحث العموميةُ والسطحية.

فالإنســـان الذي قد اشتغل في التربية مثلا ووقف على بعض إشكالاتها وأدرك الأمور التي تقتضي الحل، ووقف على حيثيات التربية، يكون أكثر استعدادا لتلقي الإشارات والآيات الموجودة في القرآن المجيد بخصوص هذه المسألة. أما إذا دخل خالي الذهن فإنّه سوف يتخطّف ويُحتال بقضايا كثيرة ومتعددة، ولن يكون الاستنطاق للقرآن المجيد بخصوص الهيمنة في مضمار التربية كما هو مرجو؛ بمعنى أنّ بناء هذه التضاريس التي سوف تلتقط الآيات المتعلقة بالقضية المدروســـة لابد منـــه بين يدي الدخول إلى عالم القرآن الرحيب لبحثها.

الشرط السادس: وهو مسألة النماذج المعرفية، أو الأنساق

القياسية، أو الأطر المرجعية التي ينطلق منها الباحث؛ فإن كانت مُغلَقة فاته الكثير، بخلاف الأمر إنْ دخل وهو مُطَّرِحٌ بين يدي كتاب الله ﷻ، مستعد لأنْ يتجاوز ما في ذهنه من الأطر المرجعية والأنساق القياسية والنماذج المعرفية وأبنية أخرى جديدة بحيث -وهو يبحث- تكون هناك هيمنة ذاتية.. مع ضرورة استدامة الانفتاح والحفاظ على الوعي التّام بأنّه إنسان محدود وبأن هذه المحدودية تقتضي التكملة.

الشرط السابع الذي لابد منه أثناء بحث قضية الهيمنة في القرآن المجيد، هو أن تكون مستحضرا في كل لحظة كونكَ إنساناً تنتمي إلى الأسرة الآدمية الممتدة عبر الزمان والمكان وأنك تشكل معها وحدة وتعيش معها تحديات مشتركة لابد من العمل المتظافر لرفعها، مما يجعل منك كائنا كونيا يتبنّى هموم العالمين في كافة امتداداتهم، وهذا تنتج عنه حالة من المشاركة الوجدانية تساعد على تَلقّي إشارات القرآن الكريم بخصوص الهيمنة، إشارات لا سبيل إلى تلقيها في غياب هذا الشرط النفسي والوجداني.

وهذا الشرط يعدّ -في اعتباري- بمثابة الإطار العام المحدّد للوجهات التي سوف ينطلق فيها الباحث حين يكون منفتحا على هموم العالمين، ويكون عنده كل الافتقار وكل الإدراك اللذين مضت إليهما الإشارة.

فإذا تدبرت -على سبيل المثال- مفهوم الطلاق وكيف تمّ التصديق والهيمنة بخصوصه في القرآن على ما سلف، ثم نظرت في سياقات دينية وحضارية حُظر فيها الطلاق سوف تتجلى أمامك الهيمنة على هذه المفاهيم المستقرة، وسوف تكتشف كيف أنّ القرآن المجيد قد قوّى هذا الرباط المبارك المتصل بصناعة الحياة؛ رباط التزويج، بفتحه لإمكان مفارقة الرفيق متى ما أصبحت الحياة المشتركة متعذرة لسبب أو لآخر، درءا لدواعي اللجوء إلى ما لا يحل، وهو لجوء عادة ما تفضي إليه التدينات التي لا تتيح هذه المكنة باليسر وكذا الاحتراز الموجودين في شرعة الإسلام، وهذا مما يؤهل الباحث لأن يكون أقرب نفعا للعالمين من خلال إفاضة وتعدية هدى كتاب الناس إلى الناس.

منطق الظاهر الحضاري

مسألة أخرى بهذا الخصوص تتجلى إن نحن انتقلنا بالبحث إلى الجوانب الفكرية وإلى الأفكار السائدة التي هي بمثابة البراديغمات المسيطرة المنتجة لما يسمى بـ"النسق المفاهيمي المؤطر" لحضارة معينة، سوف نتبيّن من مدخل استحضار هذا الإدراك أن المنطق العام المهيمن على الحضارة الراهنة منطق يدور في فلك ما أسماه الله تعالى: ﴿ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في قوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(الروم:٧)؛ أي إنّ النسق المفاهيمي التصوري في هذه الحضارة منحسر ومنحبس في هذا الإطار الذي هو ظاهر الحياة الدنيا أي الحجب الثلاثة حجاب الدنيا والمادة، وحجاب النفس، ثم حجاب الخلق. فإذا تم الدخول إلى القرآن المجيد في استحضار لهذا الإشكال الكبير الموجود في هذه الحضارة (الانحسار في ظاهر من الحياة الدنيا)، سوف تبرز مجموعة من المعطيات الجديدة المهيمنة والمخلِّصة، كالميزان والمعاد والجزاء القائم على الحساب، والسعي إلى الرضوان، والتجانف عن الغضب والإبعاد، والتنعم بالنعيم، والفرار من الجحيم، مما يعتبر هيمنة محررة من سجن هذا الاعتقاد المحجّم لأبعاد الحياة وأبعاد الإنسان.

وإذا انضاف إلى هذا استحضارُ الانتماء إلى الأسرة الآدمية الممتدة في انتشارها الزماني والمكاني، والاعتقاد بوجوب تبنّي همومها لما يقارفه من الأجر والرضوان، سوف يستطيع الباحث أن يرى أوجه الهيمنة في القرآن الكريم على هذا الضرب المنحسر من التفكير، ومن ثم سوف يتمكن من تجاوزه في ذاته ثم في الآخرين من خلال إبرازه لهم، وكما قال ابن خلدون: "في حلّة قوية البنيان ومتينة الأركان" بحيث تتقبّله العقول ويكون رحمة للعالمين.

فهذه سبعة شروط متصلة بقضية التصديق والهيمنة وآليات عملهما في القرآن الكريم أردتُ الإسهام بها من أجل استئناف فتح ملف هذه القضية التي أعتقد أنها لم تُعط حقّها كما يلزم ضمن الأبحاث المنتمية إلى دائرة معارف الوحي. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

(1) في مجالات التيسير تدبّرا: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾(ص:٢٩)، وفي مجالات التسخير تفكّرا: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾(آل عمران:١٩١).

(2) إذ الأمم دائما تتأرجح بين قطبين؛ قطب الرهبنة -أو الخروج من العالم- وقطب التكاثر والاستكثار -أو الغرق في العالم-.

(3) كما فصّله المصريون القدامى عمليا من خلال اتخاذ ربّ للحرب، وربّ للمحبة، ورب للحياة وآخر للممات وكأنّ هناك تخصّصات في الإشراف والرعاية.



النورسي ومقاومة الفكر التيئيسي

أ.د. عمار جيدل*

يعدّ اليأس من أصول الأمراض التي يستثمرها الغالب الوقتي في قهر الشعوب والأمم المستضعفة. وقد شغل دفعه كثيرا من أعلام أمتنا فتضمّنت خبراتهم ما يفيد في تكوين مضاد حيوي لهذا المرض، ذلك المضاد الذي بمقدوره منع انتشار هذا المرض الفتّاك واستئصاله ما تعهّد الإنسان نفسه بالوقاية منه ودفع مضاعفاته الثانوية المساهمة في تشكيل أخلاق اليائس الفردية والاجتماعية.

وضع النورسي وصفة دقيقة للعلاج من هذا الداء، وحلّله في سياق بيان أهم الأمراض التي يعتني الغازي بتثمينها، ولخّصها في "اليأس"، وجعْله قانون حياة، وقتل الصدق في الحياة الاجتماعية والسياسية، وإشاعة حب العداوة، واستبعاد التعريف بالروابط المؤسسة لإنسانية المسعى والتصرّف، وتشجيع سريان الاستبداد في المجتمع سريان النار في الهشيم، والتأسيس لحصر الهمم في المنفعة الشخصية.

وتلك الأسقام رأس مال يستثمره الغالب فينا، تمكينا لمشروعه من المجتمع، فمن التيئيس في القول: "ليس أمامكم ولا لديكم أي خيار آخر" وهي كلمة تلخّص بأمانة ماذا يراد منا.

والقائلون بذلك -كما يقول أحد الباحثين- "قد استقالوا لأسباب عديدة، بل إنهم عملوا على ترسيخ قبول الاستسلام كأسلوب للحياة". ويؤكد الباحث المشار إليه أعلاه في موضع آخر صحة تشخيص النورسي، فيبيّن أن الغالب الوقتي الحالي (العولمة) كسابقيه، يتغذى من العجرفة الثقافية التي تستمد أصلها من الجهل واللامبالاة تجاه أنساق قيم أخرى وتجاه حقها في الوجود، وهذا يؤدي بشكل تدريجي وفعلي إلى نزعة ثقافية تسلطية عالمية: "افعل مثلي إن كنت تتشبّث بحقك في الوجود".

ولعل أهم ما يقرر صحة التشخيص الآنف الذكر أن نجاح التيئيس والتجهيل مرتبط عضويا بضياع الصدق المرتبط أساسا

بالأنانية، التي سماها النورسي بالحرص على المنفعة الشخصية، المولّدة للاستبداد. يرى هذا التحليل في فكر رافض فكر الغالب الوقتي ومتبنيه، فترى المتبني يسعى جاهدا من غير شعور منه أحيانا إلى زرع اليأس والتجهيل بثقافة الأمة وتمكين الاستبداد والأنانية بوصفها أهم عناصره. تلك هي أمراض الأمم عبر التاريخ، وذلك ما يطمح إلى استغلاله الغالب الوقتي في العصر الحاضر، فما السبيل إلى معالجتها في فكر النورسي؟ وما مسلك تجاوز الأفكار التي يريد الغالب الوقتي تسويقها في بلاد المستضعفين؟

من منطلق ما سبق تقريره يتّضح أنّ مواجهة الغالب الوقتي في فكر النورسي، مواجهة لنوع الفكر الإقصائي عبر التاريخ، وبالتالي فالمواجهة ليست إلا من قبيل أفكار النورسي المحيّنة أو المؤوّنة (من تأوينها أو تحيينها)، وخاصة تلك التي نبّه فيها إلى أهم الأمراض الفتّاكة التي يستثمرها الإقصاء عبر التاريخ. تستشف تلك الأمراض الفتّاكة المسلّطة علينا وكيفية مواجهتها، مما ذكره العلامة النورسي في مجموع رسائله. وتتلخّص تلك الأمراض وفق تعبيره في النقاط الآتية: "حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبعثه، وموت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية، وحبّ العداوة، والجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض، وسريان الاستبداد سريانَ الأمراض المعدية المتنوعة، وحصر الهمة في المنفعة الشخصية، إضافة إلى التفاؤل الكاذب".

مرد كل ذلك -على قول النورسي- محاولة فتح الباب أمام ما يصرف المسلمين عن الدين، أو جعلهم في الأقل مهملين له، أو بإمالتهم نحوها، أو التخلي عن الإسلام بإلقاء الشبهات والشكوك في العقول، وتشيع بهذا مكرا سيئا، هو الآتي: أيها المسلم! تأمل، أينما وجد مسلم فهو فقير، غافل، جاهل إلى حدٍ ما، بينما مدني هذا الوقت -المقلّد للغالب الوقتي- أينما حلّ فهو متحضّر يقظ، صاحب ثروة... وهذا يعني.. إلخ.

يلاحظ أنّه يحذّر من كل فكر غالب غاز متدثّر بالثقافة والحكمة والعلم، بصرف النظر عن اسمه أو لونه، فهو كلّ من اتصف بصفاتها ونفذ أساليبها في قهر الآخرين. كأني بالنورسي يتوجّه من خلال المسلم إلى أفراد الأسرة الإنسانية محذّرا من الابتعاد عن الدين والثقافة التي تحمي وجودنا وكياننا تجاه الدمار الذي تولّده هذه النتيجة المخيفة لتقدّم فكر كل غالب، بل المطلوب هو الاستعصام به بقوة، وإلا فالمصير هو الهلاك. يقول: "لا تفرّط فيه، إنّه نقطة استنادك تجاه المصائب والدواهي، التي ألقت بثقلها العظيم، عِظم الأرض، على العالم الإسلامي، هي الإسلام الذي يأمر بالاتحاد النابع من المحبة، وبامتزاج الأفكار الناشئ من المعرفة، وبالتعاون الذي تولده الأخوة. إنّه نقطة استناد قوية تحرك الأرض إن استند إليها سننيا -وفق شروط-، وتحقق الوحدة بجميع عناصرها في ظله". يشير إلى هذا المعنى في سياق عرض أهمية الوحدة والتجمع في قضاء الحاجات، فيقول رحمه الله: "إن اجتماع الأفراد الكثيرين يولّد الحاجات، فلا يستوعب إنتاج الأرض تلك الحاجات التي تتزايد بأسباب كثيرة -كالتقليد وغيره- ومن هنا تصبح الحاجة أمّ الاختراع والصناعة، وحبُّ الاستطلاع معلّمَ العلم، والضيقُ الروحي مولدَ السفاهة. كما أنّ التوجّه نحو الصناعة والميل إلى المعرفة ينشأ مع الكثرة، والتعرف ينتج التجارة، والتعاونُ الاشتراكَ في الأعمال، مثلما يولّد التماس تلاقح الأفكار، والمنافسة والتسابق".

ننتقل بعد هذه المقدمة الضرورية إلى البيان التفصيلي لطرق العلاج:

أولا: حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبعثه

يتأسس فكر الغالب الوقتي بوصفه فكرا إقصائيا على استغلال اليأس المهيمن على عقول وقلوب المقهورين، بفعل الزلزلة المعنوية العظيمة التي أصابت المستضعفين. ذلك أنّ بقاء الغالب الوقتي مرتبط عضويا بالمحافظة على الزلزال الذي أصاب المستضعفين في أفكارهم وعاداتهم بل ومعنوياتهم مع سعي مستمر إلى ديمومة بقائه بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة.

يؤكد هذه المعاني موقفُ كثير من المستضعفين من الغالب الوقتي نفسه، فقد حاول تهيئة نفوس المغزوين لقبول الأنموذج الواحد، وبذلك يحقق تجنيدا مجانيا لصالح فكر الغالب، خاصة وقد تولّى بعضنا تنشيط الهمم للتعلّق بأفكار الغالب الوقتي، ومرد كل ذلك الزلزال الذي أصاب العقول والقلوب-كما سبق أن ألمحنا- جرّاء اليأس المهيمن. وقد صوّر النورسي هذا الزلزال فقال: "لقد أذاقت هذه الزلزلة العظيمة الناس مصيبةً معنوية أدهى من مصيبتها المادية الفجيعة، تلك هي الخوف والهلع واليأس والقنوط التي استولت على النفوس، حيث إنها استمرت ودامت حتى سلبت راحة أغلب الناس ليلا، وعمّ القلق والاضطراب أغلب مناطق البلاد. تُرى ما منشأ هذا العذاب الأليم وما سببه؟"

إنها على قول النورسي أدهى من المصيبة المادية التي يترنّح فيها مجتمعنا، أليس فكر الغالب الوقتي مؤسّسا لمجموعة من الأمراض المعنوية بفعل الزلزال الذي يحدثه فينا -كسابقيه-؟ يصوّر النورسي

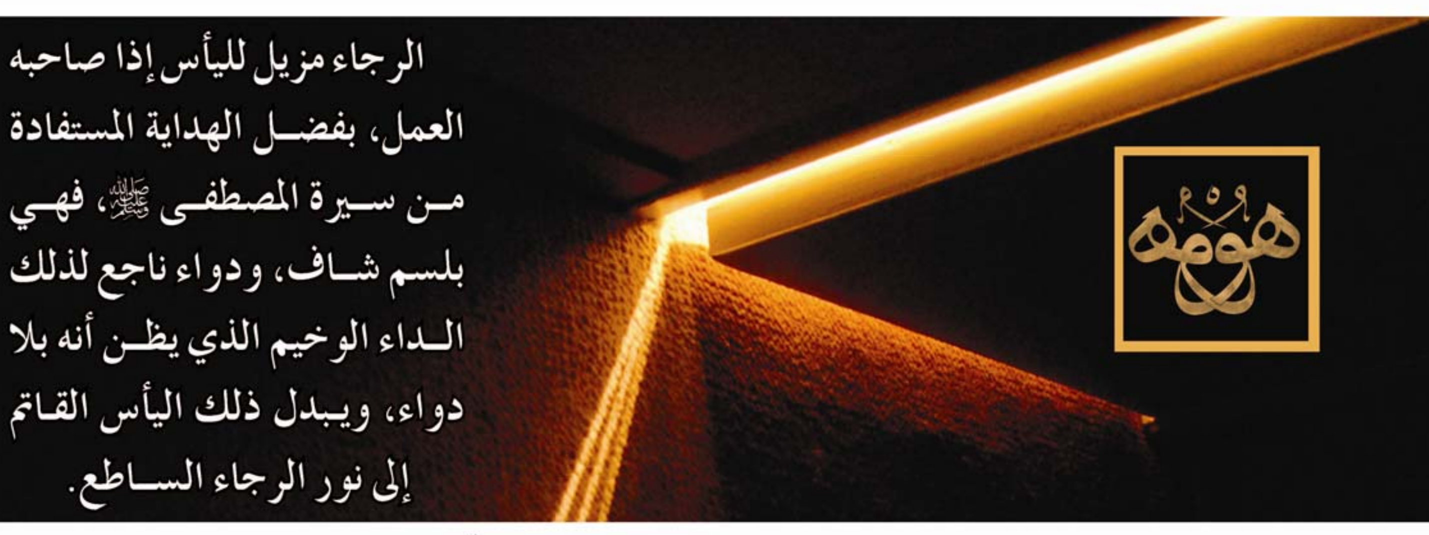
أســـباب الداء ويلخّصها في اليأس المهيمـــن. فما هو دور اليأس حسب رأي النورسي؟

خطورة اليأس ودوره التدميري

يظهر أن لليأس دورا خطـيرا لا تجدي المعرفة في علاجه، يقول النورســـي: "تُرى هل يُجدي أعظم علومكـــم، وأعلى صروح حضارتكم وأرقى مراتب نبوغكم وأنفذ خطط دهائكم شـيئا أمام هذا السقوط المخيف المريع للإنسان؟ وهل يستطيع الصمود حيال هذا اليأس المدمّر للروح البشـرية التواقة إلى الســلوان؟". وتتجلى تلك الوظيفة التدميرية فيما يأتي:

أ–رأس كثير من البلايا الأخلاقية: أغلب ما يفعله المســلم منافيا للإسلام ناشئ من اليأس والعناد لغفلة أبعدته عن النظر في

تجاربي في الحياة وتمخض فكري عنه هو أن اليأس داء قاتل، وقد دبّ في صميم قلب العالم الإسلامي. فهذا اليأس هو الذي أوقعنا صرعى كالأموات، وهذا اليأس هو الذي قتل فينا الخصال الحميدة وصَرَف أنظارنا عن النفع العام وحَصَرها في المنافع الشخصية، وهذا اليأس هو الذي أمات فينا الروح المعنوية التي بها استطاع المسلمون أن يبســطوا سلطانهم على مشارق الأرض ومغاربها بقوة ضئيلة. ولكـــن ما إن ماتت تلك القوة المعنوية الخارقة باليأس حتى تمكّن الظلمة –منذ أربعة قرون– أن يتحكموا في المسلمين والمستضعفين ويكبلوهـــم بالأغلال. إن اليأس منبع ضلال الفكر وظلمة القلب وضيق الروح، وتلك أهم عوامل تمكين فكرة قبول الاســتعمار دون تفكير في مقاومته فضلا عن تجســيدها مشـــروعا شعبيا".



عواقب الأمور، يشهد لهذا أنّ المصاب بالوساوس المتردد في شأن نفســـه، يشرع بالقيام بأعمال وحركات منافية للإسلام، ولسانه يردد: "ليكن ما يكون فلا أبالي".

بـــ–القضاء على أصول السعادة وتمكين السفاهة: اليأس سبب قوي في استئصال أصول السعادة، وتضييق الصدر، ومنبع الســفاهة والتفاهة. ذلك أن اليأس مخبوء في ســـوء الظن وينخر السعادة ويقتل الحياة، وهو أصل الضيق ومنبع السفاهة وسوء الظن.

جـــ–الألم الذي لا يطاق: يعد اليأس عاملا رئيســـا في الألم المهيمن على القلوب. ذلك لأنه شـــعور يحرق الوجدان حتى لا يكاد يطاق صراخه من شدة الألم.. لهذا يقول النورسي: "ألا إن ألم اليأس لا يطاق حقا".

د–اليأس قتل دائـــم ومنبع الضلال: يبعث الأمل الحياة في الناس، واليـــأس يقتلهم .لأن "اليأس داء قاتل"، يؤكد هذا المعنى قوله "المحيّن" (الموائم للحين الذي يذكر فيه): "إن مما أمْلت عليّ

هـــ–يسلّم صاحبه لرغبة الغازي: يجعل ضيق الصدر صاحبه لقمة سائغة للغازي، "فيقع في اليأس والقنوط. ويكون بيأسه هذا أضحوكـــة للغازي، وتمكينا لليأس من النفوس يضرب دوما على وتره الحسّاس، وينفخ في التباساته ويثيرها، فإما أن يخلّ بأعصابه وعقله، أو يدفعه إلى هاوية العمالة".

و–يولّد الخوف وقبول الإذلال والإهمال الاجتماعي: اليأس أبو الخوف وقبولِ الإذلال، إذ يتولّد من مرضي اليأس والحقد داءُ الخوف وعلّةُ الضعف ومرضُ الذلة المستولي على القلب، وينجم عنه ضرورة العطالة، والإهمال الاجتماعي بســـبب عدم المبالاة والتملّص من المسؤولية، فيخلد صاحبه إلى الكسل، قائلا: "مالي وللناس، فكل الناس حائرون مثلي" فيتخلى عن الشهامة الإيمانية ويترك العمل الجاد للإسلام".

ومـــا دام هذا الداء قد فتك فينـــا إلى هذا الحد، ويقتلنا على مرأى منا، فنحن –كما يقول بديـــع الزمان– عازمون على أن

نقتصّ من قاتلنا، فنضرب رأس ذلك اليأس بسيف الآية الكريمة: ﴿لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾(الزمر:٥٣).

ثانيا: دواء اليأس

جلي من الفرشة الآنفة الذكر أنّ المبادئ الحيّة فينا أساس الدواء، تلك القواعد والأسس التي ينبغي أن تبقى حيّة فينا ما حيينا، فإذا ما غابت فإنها ستمكّن لليأس من أنفسنا، لهذا فنحن في حاجة إلى مجموعة من العناصر لتجسيد الدواء.

أ–الحاجة إلى المبادئ المجدّدة في الخير الإنساني العام: لعل من أهم ما يخلّصنا من اليأس قوة معنوية تنتظر الخلاص من الفساد وأهله؛ ذلك أنّ البشر في كل وقت وكل عصر بحاجة إلى "معنى" يكون أساسا للقوة المعنوية، وخلاصا من اليأس، فيلزم أن يكون لكل عصر نصيب من هذا المعنى. وكذلك يجب أن يكون الناس في كل عصر متيقظين وحذرين من شخصيات شريرة تكون على رأس النفاق وتقود تيارا عظيما من الشر. وذلك لئلا يرتخي عنانُ النفس بالتسيّب وعدم المبالاة، وقد كان وما زال الغالب الوقتي قائد تيار الشر في كل عصر بما فيها الوقت الراهن، فهي توجب كسابقتها اليقظة والحيطة والحذر. ومواجهتها تفرض الاستناد إلى نقطة استناد قوية تستطيع أن تغري المستندين إليها بتحريك الكرة الأرضية من مكانها. إنّ نقطة استناد كالإسلام تمكّن الإنسان الصغير الضعيف من أن يدير أعظم الأشياء كالكرة الأرضية، فإذا كان بمقدوره أن يحرّكها، فإن من هو أقل منها لا يضعفه ولا يمنعه من تجاوزها، لهذا فالعولمة مهما طغت وتجبّرت، فإن الإسلام كفيل بأن يكون نقطة استناد في مواجهتها واستثمار خيرها لصالح الإنسانية جمعاء.

ب–الاعتبار من الماضي: أكبر عوامل دفع اليأس الاعتبار بالماضي في فهم الحاضر والتخطيط للمستقبل، ذلك أنّ عموم الناس يسهل إحالتهم على نماذج تاريخية سابقة تؤكّد بما لا يدع مجالا للشك صحّة النتيجة المستفادة من الاستقراء المبني على تتبع وقائع تاريخية عديدة وكثيرة. ولنا في هذا المقام أن نؤكّد تلك النتيجة بالمساءلة البسيطة الآتية، هل في تاريخ البشرية من بقي غالبا أبد الدهر قاهرا للمستضعفين على مرّ الزمان؟ زيادة إلى ذلك هل بقي على نفس المستوى من القوة إلى يوم الناس هذا؟ كم من قوة كونية وإن طال زمنها فهي إلى زوال. تلك سنة كونية يستوعبها العامة قبل الخاصة. أجل إنّ العوام الذين لم يبلغوا مرتبة إدراك سر القدر لهم مواضع لاستعماله، إننا إن أحسنا الإحالة على التاريخ يسهل على المجتمع استيعاب فكرة أن القوة دول بين المجتمعات والأمم والحضارات، وليست ثابتة مستمرة لأمة بعينها. وبهذا نرسّخ فكرة مناصرة المستضعفين على مرّ تاريخنا مع العمل على عدم قبول فكر الغازي اجتماعيا وتربويا وفكريا وحضاريا.

ج–المحبة والشفقة: يتجاوز اليأس بالمحبة والشفقة والصبر على البأساء والضراء. والعلامة الدالة على كون تلك المحبة لله وفي سبيله هي الصبر مع الشكر عند البلاء، ولاسيما عند الموت، والترفعُ عن اليأس والقنوط وهدرِ الدعاء، بل يجب التسليم بالحمد عند القضاء.

د–صيانة قوة الإيمان: تعد صيانة الإيمان من أهم وسائل دفع اليأس؛ ذلك أنّه بأبعاده الاجتماعية يسهم في استئصال اليأس أو يقلل من آثاره التدميرية على الأقل. فبنور الإيمان يدفع المسلم ما لو تضاعف ما ينتابه من صنوف الوحشة وأنواع الظلمات أضعافا مضاعفة، لكانت تلك الأنوار كافية ووافية لإحاطتها، لأننا متيقنون أنّ الإيمان –ببثه هذا الفرح والسرور في دنيانا هذه– يثبت أنّ حقيقته بذرة تحمل من الحيوية ما لو تجسمت لنبتت عليها جنة خاصة لكل مؤمن، ولأصبحت له شجرة طوبى.

هـ–التفاؤل باستثمار خفاء الأجل: خفاء الأجل يدفع اليأس ويرفع القوّة المعنوية، ذلك أنّ "الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الأجل مجهولا وقته، إنقاذا للإنسان من اليأس المطلق ومن الغفلة المطلقة. أي إن الأجل متوقع مجيئه كل حين، فإنْ تمكن من الإنسان وهو سادر في غفلته يكبده خسائر فادحة في حياته الأخروية الأبدية. وبالتالي يذكّر بالآخرة ويستحضر الموت في الذهن فيتأهب له، بل يحدث أن يربّحه ربحا عظيما، فيفوز خلال عشرين يوما بما قد يستعصي استحصاله خلال عشرين سنة كاملة".

و–الرجاء مع العمل: الرجاء مزيل لليأس إذا صاحبه العمل، بفضل الهداية المستفادة من سيرة المصطفى ﷺ، فهي بلسم شاف، ودواء ناجع لتلك الداء الوخيم الذي يظن أنه بلا دواء، ويبدل ذلك اليأس القاتم إلى نور الرجاء الساطع.

ز–أهمية الإيمان والعبادة في دفع اليأس: الإيمان في رسائل النور ليس من قبيل الكلام الذي يلاك ثم يرمى، بل هو موقف نظري تترجمه الأعمال المتجلية في الموقف المعيش. ولهذا المسلك دور هام في دفع اليأس واستئصاله من قلوب وعقول المؤمنين، إذ تكاد تنطفئ شعلة حياة المسلم ولا يجد في ظل الظروف الراهنة،

الصبر والسلوان إلا في الإيمان، الإيمان الذي يقابل اليأس القاتل بالأمل في حياة أسعد. ولولا هذا الإيمان لشعر المسلم الضعيف -الذي هو أجدر بالشفقة والرحمة- باضطراب نفسي وقلق قلبي، ولضاقت عليه الدنيا بما رحبت، ولتحوّلت سجنا رهيبا، ولانقلبت الحياة إلى عذاب أليم قاس.

من مقتضيات الإيمان أداء العبادات، وساعة العبادة كفارة لبعض ما ارتكبنا من أخطاء وذنوب، ربما كانت السبب في سجن بعضنا، وما دفع به السجن الصغير يدفع به السجن الكبير، فقد دفع الأول بصرف الأوقات في الصلوات، فتتحوّل بذلك ساعاتُ الابتلاء وأوقات المحن إلى يوم عبادة، فكأن الساعات الفانية اكتسبت ببركة ساعة العبادة صفة الخلود، وتصبح في حكم ساعات أبدية باقية، فتنزاح سحب اليأس ويتبدد عن الروح ظلام القنوط، اليأس والقنوط المطلق الذي من مضامينه، الشأن الحضاري والفكري والاجتماعي. فادفع ذلك اليأس المطلق بالعبادة فإنها أنفع لك ولدينك وأمتك إذا استحضرت مقاصدها، نافعة في التأسيس للإيمان ودفع الأفكار المزاحمة في كل حين، بشرط تعهّده بالاستغفار والأوبة الدائمة إلى الله تعالى.

حـ-التساند بين البشر: يعد التساند أنفذ سبيل في دفع الأفكار الإقصائية، وألزم ما ينبغي لنا عمله في هذه الأيام استثمار ما وضعه النورسي لمواجهة التيارات الفكرية والسياسية الغالبة في وقته، فقد ذكر أنها تجابه بعدم القلق والاضطراب، وعدم اليأس، وإسناد كل منا الآخر وإمداد روحه المعنوية، وعدم الخوف، واستقبال هذه المصيبة بالتوكل، وعدم الاكتراث بأقوال الصحف التي يطلقونها جزافا ويستهولون كل حبة صغيرة، بل علينا استصغار ما استعظموه من أمور.

ويفرض هذا التساند الصبر والحيطة مع كمال الاستسلام لله والثبات على الخدمة وعدم الوقوع في خيبة الأمل، وعدم اليأس من ظهور خلاف المأمول، وعدم التزعزع أمام أعاصير مؤقتة زائلة... لاحظ جيّدا أنها رغم غلبة تلك الأفكار (أعاصير) وخطورتها فقد اعتبرها مؤقتة، أي إنها وإن طال أمدها فمآلها الزوال. وكذلك الحال لكل فكرة غالبة في أي وقت، فتذهب ويبقى الإنسان أكبر شاهد على تلك التجربة التاريخية التي تؤكد أن الفكر الإقصائي أيامه قصيرة مهما طالت، وبالتالي فلا خوف على الإنسان، وخاصة الإنسان المؤمن إذا تعلّق وتمثّل مبادئ دينه.

ط-إدخال السرور على قلوب المغبونين: يُدخل المؤمنُ -بالتزامه- السرورَ على نفسه ويسعد الآخرين بحاله قبل مقاله، لأن صحوته ستجعله -بإذن الله- مناط سلوان ومدار تسلٍّ لأولئك المساكين وأمثالهم، وتجعل منك طبيبا حقا يشع نورا إلى القلوب وينشر البهجة في النفوس.

كما يسهم بهذا العمل في الرفع من القوة المعنوية بالبشرى الصادقة، وإزالة اليأس المخيم على أهل الإيمان، فقد كان الشيخ النورسي رغم الجو الحالك يبشّر بنور محيط واسع في دائرة عظمى في الحياة الاجتماعية. والسيرُ على منهاجه يقتضي التبشير في عصرنا بما بشّر به الشيخ رحمه الله، دون نظر في الأفكار المزاحمة، فإنها وإن طال أجلها آيلة إلى الزوال، ويبقى الإسلام شامخا وخالصا من الشوائب، تلك هي الحقيقة فهل نكون أهلا لنيلها؟ إننا لن نكون كذلك إلا إذا تجاوزنا الحرص بالقناعة والسعي باستمرار لتنمية قدراتنا الإيمانية بما يوافق مطالب الزمان، وهذا ما يدعونا إلى تجسيد الحيوية الإيمانية على مدار الزمان. ■

(*) كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر / الجزائر.

المصادر

(1) الكلمات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(2) المكتوبات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(3) اللمعات ، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(4) الشعاعات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(5) الملاحق، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(6) إشارات الإعجاز، لبديع الزمان سعيد النورسي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(7) صيقل الإسلام، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(8) الخطبة الشامية، لبديع الزمان سعيد النورسي، دار سوزلر للنشر، القاهرة.

(9) عولمة العومة، المهدي المنجرة، منشورات الزمن، الرباط، ٢٠٠٠.

(10) حوارات من أجل المستقبل، للدكتور طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٩.

(11) العولمة من منظور شرعي، للدكتور عمار جيدل، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٢.

(12) العولمة من منظور عربي، الدكتو رالحبيب الجنحاني،مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

في الملامح الفنية للواقعية الإسلامية

أ.د. عماد الدين خليل*

ا الواقعية الإسلامية لا تعكس فقط المضامين الفكرية لمفهوم "الواقعية"، وإنما تمضي لكي "تعبّر" عن هذه المضامين بشبكة من القيم الفنّية التي تتسرب في شرايين النصّ الإبداعي وتمنحه مذهبيته المتميزة عن سائر الواقعيات الأخرى.

ابتداءً، ما دمنا بصدد العملية الإبداعية، فإن المسألة لا تقف عند حدود المضمون الفكري، وإنما تعكس حيثياتها بالضرورة على فنيّة الأداء أو أسلوبيته، لأننا ههنا لا ننجز عملاً فكريا أو بحثا في التاريخ، أو أيّاً من المعارف الإنسانية، وإنما ننتج أدبا، وهذا بالضرورة ينطوي على الاثنتين معا، المعنى والمبنى، أو التصوّر والأسلوب. ولذا فمن المستحيل أن تكون الواقعية الإسلامية منزوعة الجلد أو الملامح، أي بعبارة أخرى، لا تملك قيمها الفنية المتميزة التي تعكس أبعادها ومغزاها، كما يتوهم البعض ممن لم يقتنعوا بعد بمذهبية الأدب الإسلامي.

لنقف لحظات عند واحدة من ملامح الواقعية الغربية -بأنماطها كافة-، والتي يقف وراءها صفّ طويل من الأدباء العرب. تلك هي قضيّة "العري" التي تلح عليها واقعيات الغربيين، وتصل بها أحيانا حدّ التكشف الكامل الذي يعرض الجسد البشري، وأحيانا العملية الجنسية أو جوانب منها على أقل تقدير. إن هذا يعكس رؤية للحياة قادمة من العمق اليوناني الذي تشهد منحوتاته بهذه الرغبة المتأصلة لنزع الغطاء، وتعرية الإنسان على مستوى الجسد أو الغريزة أو اللاواعية التي تنهتك فيها الأستار. هذه الرؤية التي غذتها -فيما بعد- جملة من المعطيات الفلسفية، وما يسمى بالكشوف العلمية، وبخاصة في مجال علم النفس، ثم جاءت المذهبيات الفنية الأكثر حداثة لتزيد من توقها للعري، ولتقودها إلى دهاليز الكبت والشبق وتضعها، كما فعلت السريالية، وكما يقول "فاولي" في "عصر السريالية": "على حافة الجنون والدجنّة".

ولقد تشكلت قبالة هذه الرؤية، أو في نسيجها بعبارة أدق، وبحكم قوانين الإبداع الأدبي، منظومة من المعادلات الفنية التي عمقت الملامح المذهبية للواقعية ومنحتها شخصانيتها المتميزة بين المذاهب.

التغطية زينة الإنسان

القانون نفســـه يعمل عمله في الدائرة الإســـلامية التي تملك رؤيتها الخاصة لظاهرة التكشّـــف أو التعري، وترى -على العكس من الموقف الغربي- أن زينة الإنسان وجماليته لا تتحققان إلاّ بالتغطية، وترى في التكشّف، "عورة" أو "سوءة" يجب حجبها عن الأنظار إذا أريـــد التحقق باحترام إنســـانية الإنسان.

> **الواقعية الإسلامية**
> **واقعية حضارية فاعلة تنطوي على العقل والفعل معا، ويكون هدفها الإنسان المؤمن المتوحد السعيد. فليس ثمة جسدي أو روحي، ولكنه التعاشق الذي يتلاءم تماما مع تكوين الإنسان ومطالبه وضروراته وأشواقه.**

إذا وســـعنا المنظور فإننا سنجد الحجاب -إسلاميا- يتجاوز بعـــده الاجتماعي-الأخلاقي صوب دائرة أشمل وأبعد. إنه يحمل بعداً حضاريا، ليس فقط لكونه يحمي الطاقة البشـــرية من الهدر والتضييـــع ويعين القدرة على الإنجاز ويرفع وتائرها، وإنما لكونه يتجذر في البدايات الأولى، في لحظات الخلق الإلهي للإنسان الذي حمـــل في البر والبحر، وكرّم على المخلوقات، وأريد له أن يكون سيدا على العالمين.. أن يتعفف ويتطهر ويتغطى.

إن آدم عليه السلام وزوجه، لحظة تناولهما ثمر الشجرة المحرمة، عوقبا للحظات بالعـــري، ولكنهما ما لبثا أن ﴿طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِـــنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾. ويكفي أن نقرأ معا هذا المقطع من ســـورة الأعراف بحثـــاً عن الجذور الموغلة للظاهرة وعن البعد الحضاري للحجاب الذي أريد للإنسان أن يوظفه في اثنين؛ الستر والتزيّن:

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّـــجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ فَوَسْـــوَسَ لَهُمَا الشَّـــيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَـــوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّـــجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۞ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّـــجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَـــا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّـــجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّـــيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ۞ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۞ قَـــالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۞ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًـــا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْـــوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۞ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّـــيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِـــنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَـــهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَـــوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(الأعراف:١٩-٢٨).

منذ بدايات الخلق أريد للإنسان أن يتغطى ويتزيّن حيث يصير الاحتشام والحجاب مرادفين للزينة والجمال وحيث يكتســـبان بعداً حضاريا. حيثما تلفتنا وجدنا الحجاب، ليس في حدوده الفقهية المنظمة فحسب، وإنما على امتداد الحياة البشـــرية، في كل خلاياها ومنحنياتها وممارساتها ودروبها.. فإما النظافـــة والطهر والجمال وإما الفحـــش والقبح والفجور.. ولا شـــيء بين هذا وذاك. لا شيء وراء هذا وذاك. وليس بعد الحق إلاّ الضلال.

ويظل المنطلق إلى هذا كله، نقطة البداية لهذا كله، هو الحجاب الذي بتحققه يقوم المجتمع النظيف المتوازن الجميل، وبانهياره يجيء الزهري والسفلس والأيدز فيأكل الأخضر واليابس.. وحيث لا يأمـــن الزوج على زوجته، ولا هذه على زوجها، ويتكاثر أولاد الحرام فلا تكاد تســـتوعبهم المحاضن والملاجئ.. وحيث يصير الفعل الجنســـي المحرم نزوة عابرة يتحتم إطفاؤها ســـريعا كما يشـــرب الإنسان العطشان كأســـاً من الماء، فيما قالت به يوما تنظيرات الماركســـية البائدة في بدايات تشكل الاتحاد السوفياتي المنحلّ على يد عالم النفس الماركســـي المعروف "ولهلم رايخ"، وفيما دفع "لينين" نفســـه بعد ســـنتين فقط إلى أن ينهض محتجاً ويدعو ثانية إلى الاحتشـــام والتعفف واحترام قوانين العائلة، وإلاّ أصبح الجيل التالي من السوفيات كله من أولاد الحرام.

ولنرجـــع إلى نقطة البداية، فـــإذا كان "التعرّي" ينعكس في الواقعيات الغربية على الخصائص الفنية للمذهب ويسمها بملامح متميـــزة، فإن "التحجّب" في المقابل ســـينعكس هو الآخر على الخصائص الفنية للواقعية الإســـلامية ويســـمها بملامح متميزة. ليس التحجّب بمفهومه الحسـّي فحســـب، وإنما بأبعاده النفسية والسلوكية والاجتماعية والحضارية في نهاية الأمر.

هل الواقعية ترفض الإيمان

لنقف -كذلك- عند مسألة أخرى. فإذا كانت الواقعية الغربية بأنماطها كافة تقف عند حدود المحسوس والمنظور وترفض الإيمان بما وراءهما، فيما ينعكس بالضرورة على منظومة القيم الفنية للواقعية، فإن الواقعية الإسلامية تنطوي -بقوة العقيدة- على المرئي وغير المرئي، على الظاهر والغيب، على المنظور والمحسوس وما وراءهما، فيما ينعكس -بالضرورة- هو الآخر على منظومة القيم الفنية للواقعية الإسلامية.

وفي الحالتين أو المثلين اللذين ضربناهما، تنزاح الواقعية الإسلامية عن حافات التصوّر ومقولاته باتجاه شبكة من اللمسات أو البنى الفنية التي تشكل المعادلات الموضوعية للأفكار على المستوى الفني والجمالي.

والحق أنه ما من مذهب أدبي، كالواقعية، تعرّض للأخذ والردّ، والضيق والامتداد، وللجدل المتواصل حول مضامينه، وأبعاده النهائية. فالمذاهب التي سبقته كالكلاسيكية الجديدة والرومانسية، والتي عاصرته وأعقبته، كالرمزية والسريالية والبرناسية والانطباعية والتعبيرية والوجودية والعبثية والمستقبلية.. إلخ. لم تجد من قلق التفسير ومتغيرات التنفيذ الإبداعي عشر معشار ما شهدته الواقعية.

وإننا لنتذكر هنا الكلمات المعبرة التي وصفها بها "دمين كرانت" أستاذ الأدب الإنكليزي المعاصر في جامعة مانشستر حيث يقول: "من المؤكد أن كلمة الواقعية بما يبدو عليها من استقلال عن أي وصف يتعلق بالمحتوى أو بالنوع، وما تتصف به من مطاطية جموح، هي معجزة يشعر كثير من الناس أن بوسعهم الاستغناء عنها".

كما نتذكر العبارة الساخرة التي أطلقها عليها الشاعر الأمريكي المعاصر "والاس ستيفنز" (١٨٧٩-١٩٥٥م) من "أن الواقعية هي إفساد للواقع".

قد يرجع السبب إلى أن هذا المذهب دون غيره من المذاهب يريد أن يتعامل مع الواقع بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وبما أن الواقع في المنظور الوضعي مسألة نسبية قد تشمل الذات وقد تقتصر على الموضوع، وقد تمتد لكي تشمل العالم والكون على امتدادهما، وتضيق لكي تنحصر في عملية نقل فوتوغرافي شيئي لشريحة اجتماعية أو جزء من شريحة أو فئة محدودة من الناس، فإن لنا أن نتصوّر كيف تستحيل أية محاولة تسعى للتنظير للواقعية، أو تقسر معطياتها الإبداعية على أن تمرّ من هذا المعنى المحدّد أو ذاك، وتلتزم التحرك عند هذه المساحة المحدودة أو تلك.

الواقع مفهوم غير محدد

ويزيد الأمر قلقا وتأرجحا أن الواقع في رؤية الفيلسوف هو غيره في رؤية الفنان والأديب.. مفهوم غير محدد، وساحة قد لا تتعدى دائرة ضيقّة وقد تمتد لكي تشمل الوجود كله.

وبما أن الفنان أو الأديب يصدر في معظم الأحيان عن رؤية فلسفية، أو تصوّر ما للكون والحياة والوجود والإنسان، فإن لنا أن نتصور كيف سينعكس ذلك على المعطيات الإبداعية المتعاملة مع الواقع، فتكون الواقعية تياراً من المتغيرات بعبارة أدق، بحيث أن أديبين يقف أحدهما في أقصى اليمين -إذا صح التعبير- ويقف الآخر في أقصى اليسار يمكن أن يكونا واقعيين.

ويجب أن نتذكر أن النقد الأدبي في الغرب وذيوله في الشرق، يمارس نوعا من الخداع أو الإيهام في اثنتين: أولاهما التعميم الذي يطبقه على المعطيات الأدبية في عصر من العصور فيرغمها على أن تنتمي لمذهب واحد، وهذا التعميم هو إحدى الثغرات المنهجية في الفكر الغربي يمارسها باتجاه مطّ الحقائق لكي تغطي الحياة وظواهرها وتفسّرها من جهة، ومطّ المذاهب لكي تغطي المعطيات كافة من جهة أخرى.

هذه واحدة، أما الثانية فهي أن المذاهب غير الواقعية ليست بالضرورة غير واقعية، بالصيغة الصارمة التي لا تقبل ردّاً ولا تحويلا. فإذا ما تجاوزنا التنظير المتشنّج وجدنا مذهبا كالرومانسية -مثلاً- أو السريالية، واقعيا بمعنى من المعاني، لأنه يتحدث عن تجربة واقعة في الذات أو اللاوعي أو -حتى- في الأحلام. ومن ثم فإن المشكلة إنما هي مشكلة عدم القدرة على تحديد ما هو الواقعي وما هو غير الواقعي، أو بعبارة أكثر تبسيطا: ما هي على وجه اليقين المساحة التي تشمل "الواقعي" بحيث أن تجاوزها ينقلنا بالضرورة إلى "اللاواقعي"؟

التصور الإسلامي للواقع

وهكذا فإن محاولة معرفة الموقف الإسلامي من "الواقعية"

على مستـويي التنظـير والتنفيـذ، أو التصور العقـدي والإبـداع الأدبي، يعد أكثـر إلحاحا - ههنـا- مـن المحاولـة مع سـائر المذاهـب الأخرى.

من هنا، ولأسـباب نقدية عديدة كما سنرى، تأتي أهمية كتاب الأخ الدكتور أحمد بسـام ساعي "الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد". إنه محاولة جـادة للإجابة عن اثنتين: التصور الإسـلامي للواقع، وطبيعة النشـاط الإبداعي المتمخض عنه، ولذا سـنقف عنده بعض الوقت بسـبب ارتباطه بالمسألة التي بين أيدينا.

منذ اللحظات الأولى نجد أن الواقعية التي يتبناها الإسـلام تنفـرد بميزتين: صدقها وتطابقها مع الإنسـان "وإلى أن يصل الأديب إلى الواقعية الكاملة التي يسـعى إليها تلقائيا بقوة تيار الحياة وتجاربها، سيكتشـف في النهاية أن الإسلام قد سبقه إلى إقرار تلك الواقعية الإنسانية التي يبحث عنها".

ليس هذا فحسب، بل إن العلم الجاد، لا الفلسفات المهزوزة، يجيء لكي يؤكد التصوّر الإسلامي للواقع، ذلك الذي يتضمن الروحي والمادي معا، ويحتضن الإنسـان بما أنه كائن متفرّد. والمؤلف يبشـر بأن المستقبل سوف يعزز هذا التوجه في ميدان الأدب العالمي: "إن كل الدلائل تشير إلى أن الأدب في العالم يتجه نحو تلك الواقعية الموضوعية -أو الإسلامية- التي أضحى العلم الحديث الآن يؤيدها، وهي أن الإنسـان مادة وروح معا، وأن عنصر الروح يوشك أن يطيح في تدهوره السريع بحياة الإنسان المادية نفسها، إذا لم نتدارك سقوطه وننقذه قبل فوات الأوان".

يتضمـن الكتـاب أبوابا ثلاثـة، خصص أولهـا للنظرية وجعـل ثانيها وثالثهـا، في معظم مسـاحاتهما، ميدانا لتنفيذ "الواقعيـة الإسـلامية" على عدد من القضايـا والنصوص في الشـعر والنثر، وبذلك يسـتكمل الكتاب أسـبابه من حيث أنه لا يقـف عند حـدود التنظير بل يمارس نقـده التطبيقي فيمنـح الواقعية الإسـلامية فرصتهـا للفعـل والاحتكاك.

لا بأس من الوقوف قليلا عند الفصل الأول من الباب الأول لأنه المعني بطرح القواعد وتحديد المصطلح من منظور إسلامي مقارنا بمعطيـات الغربيين، وهو يجيء تحت عنـوان "النظرية الإسلامية في النقد: الواقع والحقيقة والفعل".

الضربـة الأولى في محلّهـا تماما: حاجتنا الماسـة لمصطلح نقدي إسـلامي خاص بنا من أجل التحرر من أسـر المصطلح الغربي، هذا المصطلح الـذي يبلغ قدرا كبيرا من التعقيد والتشـابك والإحراج للناقد عندما يتعامل مع الواقعيـة بالذات، وهو كذلك كثيرا ما يقع في مظنة التعميم. فإن "فكرة إيجاد مصطلح يسـتوعب مئات الكتاب والشعراء ويوحّد اتجاهاتهم المتباينة ليضعهم جميعا في سـلّة واحدة اسمها "المذهب الأدبي" فكرة قسرية في الأصل، سبق أن حيرت الأدباء والفنانـين والنقاد جميعا في الغرب، حين وضعوا بداية مصطلح "الكلاسـيكية" في القرن السابع عشـر من غير أن يستطيعوا "ضبط" كل الكلاسـيكيين تحت قواعدها الرصينة القاسـية".

وجل المذاهب التي جاءت بعد الكلاسيكية -على اختلافها- عانت من التعميم القسري ذاته. ومهما يكن من أمر فإننا "حين نتحدث عن واقعية إسلامية، فلابد أن نكون على حذر شديد من السقوط في التعريفات القديمة الجاهزة لكلمة (واقعية)..".

ومن أجـل تجاوز ذلك لابـد من محاولـة تلمّس الخيط الحقيقي الذي يربط بين المصطلح والواقع، عندها سيتكشـف لنا صـدق الواقعية الإسـلامية وانفسـاحها واسـتحقاقها لهـذا الاسـم دون الواقعيـات الأخرى. فهـي على خلاف الواقعيـات الوضعية تنطـوي على الحقيقـي والواقعي معا، وبهذا تتحطم حواجز المحدود وينفسـح المنظور القريب لكي تمتد الرؤية إلى مسـاحات أوسـع بكثير فتتجاوز "البصر إلى البصـيرة، والمـادة إلى الروح، والعقل إلى مـا وراء الطبيعة".

قد تلتقي الواقعية الإسـلامية مع الواقعية الاشـتراكية - مثلاً- في جوانب متعددة ولكنها تختلف عنها في الجذور "إنهما تنفصلان عند الأساس حسماً، أقصد الأساس الروحي".

الشمولية الإسلامية للواقع

وهكذا فإنه بالإحالة إلى شمولية الرؤية الإسلامية للواقع وانحسار سائر الرؤى الأخرى، يمكن أن يتبيّن للمرء الفارق النوعي الحاسم بين هذين النمطين من الواقعية، إن على مستوى التصور أو على مسـتوى التنفيذ الإبداعي "ولعله أصبح من السهل علينا الآن التفريق بين كل من الواقع والحقيقة والواقعية الإسلامية. فالأول ذو بعد واحـد: الأرض، والحقيقة ذات بعد واحد أيضا يقابل البعد الأول وهو السماء، إنها الواقع "الميتافيزيقي"، أما الواقعية الإسـلامية فهي الرباط السليم المتوازن الذي يجمع بين الأرض



الرحمة والأمان

يا ذوات المخلب والناب!
دعي الظَّبْيَين بالسلام ينعمان،
وبالأمان يستظلاّن،
وإلى سلطان الشفقة يركنان...
* * *

والسماء، بين الطبيعة المحسوسة والطبيعة غير المحسوسة".

إنه "الواقع المثالي" ولكن ليس بمفهوم مثالية الفلاسفة التي تعاني من الازدواجية واستحالات التحقق في الواقع، والتي كانت تنبثق في معظم الأحيان كردود أفعال متطرفة لواقع مترع بالشروخ والتناقضات، وإنما هي مثالية الإسلام المتوحدة والقادرة على التحقق والمرسومة بعناية على عين الله الذي يعلم من خلق والذي هو بكل شيء عليم.

والواقعية الإسلامية واقعية حضارية فاعلة تنطوي على العقل والفعل معا، ويكون هدفها الإنسان المؤمن المتوحد السعيد. فليس ثمة جسدي أو روحي، ولكنه التعاشق الذي يتلاءم تماما مع تكوين الإنسان ومطالبه وضروراته وأشواقه. وعلى ضوء هذه الرؤية الرحبة الشاملة للواقعية يمكن أن يستمد النقد الإسلامي معاييره الأكثر مرونة وصدقا، ويمكن للإبداع الأدبي الإسلامي أن يتحرك في مساحات أوسع بكثير من تلك الجحور الضيقة التي تحركت في سراديبها آداب الوضعيين وفنونهم.

إن تسليط الضوء في الأعمال الأدبية على ظاهرة ما، يسهم بالضرورة في تشكيل وبناء منظومتها الفنية: السرد والحبكة والشخوص والحوار والمنولوج والفضاء.. إلخ.

وإذا كانت الواقعيات الغربية -على سبيل المثال- تقدم لنا أبطالاً تأسرهم قوة الغريزة، فإن الواقعية الإسلامية تقدم لنا البطل الذي يملك قوة الإرادة. وإذا كانت الواقعيات الغربية تضيّق الفضاء الروائي في مدى المحسوس والمنظور، فإن الواقعية الإسلامية تكسر جدران العزلة بين الإنسان والكون، وتوسع مجال حركته إلى ما وراء المنظور والمحسوس، وتنقله بين الحين والحين من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وهو في الحالتين يتحرك في دائرة الواقع، ولكنه الواقع المنفتح على مداه.. وهكذا.

ولن يكون بمقدور المرء، كائنا من كان، قارئا أم ناقداً، أن يفصل تأثيرات الرؤية عن تلبّسها الفني.. ومعضلة أيهما أسبق قد وجدت حلّها منذ زمن بعيد، ففي معظم المذاهب الأدبية الغربية كانت الرؤية هي نقطة البدء، ثم تجيء المنظومة الفنية لكي تعكس مفردات هذه الرؤية وتتلبّسها بطرائقها الإبداعية الخاصة، وليست الواقعية الإسلامية بدعاً من الأمر. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.





يفعل الزمن الأفاعيل، ففمه لوّاك مضّاغ، ورحاه تدور بلا توقف لتفتت وتذرو، فلتكن إرادتك من حديد، وصلبك من فولاذ، وإلا سحقك الزمن وذرات فتتك..!

* * *

التدين والصحة النفسية

أ.د. مصطفى كويلو*

على الرغم من أنه لم تؤسس علاقة سليمة بين الدين وعلم النفس منذ القرنين الأخيرين، إلا أن البحوث التي أجريت في هذا المجال منذ حوالي ثلاثين سنة كشفت عن وجود علاقة مهمة بين التدين والصحة النفسية. ولا ينحصر هذا الرأي على العلماء الباحثين في مجال العلوم الشرعية، بل يلقى تأييدا من الباحثين في حقل العلوم الطبية أيضا. وبالإضافة إلى الملاحظات النظرية فالبحوث التجريبية التي أجريت في هذا المجال أثبتت أن الذين يتمتعون بمستوى عال من التدين (الخلوص في العقيدة والمواظبة على أداء العبادات والدعاء وقراءة المتون المقدسة... إلخ) يكونون -بالمقارنة مع قليلي التدين- في وضع نفسي أحسن، ومطمئنين في حياتهم، ومتفائلين في تفكيرهم. بالإضافة إلى أنهم أقل تعرضا للضغوط النفسية والاكتئاب والقلق، وأقوى على مقاومة الضغوط النفسية، وأقل محاولة للانتحار.

والحقيقة أن هذه البحوث الميدانية التي أجريت في المجتمع الغربي لا تدل كلها -لأسباب عديدة- على العلاقة الإيجابية بين التدين والصحة النفسية، إلا أن قسما كبيرا منها يدل على أن بينهما علاقة إيجابية.

ويذكر (Koenig) الذي هو من أهم المتخصصين في هذا المجال أن (٥٠٠) من أصل (٧٠٠) من البحوث التي أجريت قبل عام (٢٠٠٠) في هذا المجال (٧١٪) أظهرت أن هناك علاقة بين الدين والصحة النفسية. وحسب هذا التحليل:

أثبتت ٦٠ من أصل ٩٣ تجربة أن الذين يتحلون بمستوى عال من التدين هم أقل تعرضا للاكتئاب، والذين يتعرضون له يشفون في مدة أقل. وأثبتت ٥٧ من أصل ٦٨ تجربة أن هؤلاء أقل محاولة للانتحار. وأظهرت ٣٥ من أصل ٦٩ بحثا أن نسبة القلق لدى هؤلاء أقل. و ٩٨ من أصل ١٢٠ يتعاطون المخدرات أقل من غيرهم. وأظهرت ٩٤ من أصل ١١٤ أنهم كانوا في وضع أفضل من الناحية النفسية والشعور بالأمل والتفاؤل. و ١٥ بحثا من أصل ١٦ يرون في حياتهم ما يضفي عليها المعنى ويحقق أهدافهم وطموحاتهم أكثر. وأثبت ٣٥ من أصل ٣٨ بحثا أنهم أسعد في حياتهم الزوجية وأحسن في تعاملهم مع أزواجهم. وأن ١٩ من أصل ٢٠ منهم تلقّى دعما اجتماعيا أكثر.[1]

صحيح أنه لابد لمن يقرأ هذه المعطيات أن يأخذ بعين الاعتبار خصوصيات ديانة المجتمع الغربي، إلا أننا نستطيع أن نقول في نهاية المطاف إن الأثر الإيجابي للدين على الصحة النفسية في الجملة أكثر من السلبية. ففضلا عن المعلومات النظرية، سنتناول في هذا المقال تأثير الدين على الصحة النفسية في ضوء البحوث التجريبية التي أجريت في هذا المجال في الغرب -وبالأخص في الولايات المتحدة-. وفي هذا السياق سنحاول البحث عن العلاقة بين العقائد الدينية والاكتئاب والانتحار والقلق، وبينها وبين السلامة النفسية.

التدين والاكتئاب

من المعلوم أن الاكتئاب يأتي على رأس قائمة الأمراض التي تهدد إنسان هذا العصر؛ فلقد ثبت أن ١٠٠ مليونا من الناس تأثروا به.[٢] فهو من الأمراض الأكثر انتشارا وبخاصة بين المسنين. فنسبة المسنين الذين يعانون من هذا المرض وإن كان قليلاً مقارنة بمجموع الفئات العمرية، إلا أنه إذا قورن بالمسنين الذين يتلقون العلاج في المستشفيات ترتفع النسبة إلى ٣٥٪. وبخاصة إن الأعراض الاكتئابية تظهر بنسبة أعلى لدى المسنين الذين لا يقيمون في مؤسسات معينة.[٣]

فالاكتئاب إذا لم يعالج فسيؤدي إلى نتائج سلبية للمسنين وللمجتمع الذي يعيشون فيه. لأن معظم الأمراض الاكتئابية لا تشفى تماما، وقد يرجع المرض بعد فترة علاج طويلة، فقد ثبت أن ثلثي مرضى الاكتئاب الذين تلقوا العلاج قد أصيبوا بهذا المرض مرة أخرى في أقل من ثلاثة أشهر، وهذا الوضع يؤثر سلبا من الناحية الاقتصادية من جانب، ومن جانب آخر على نوعية الحياة، فيؤدي إلى ارتفاع معدل حالات الوفيات.

فما نوع العلاقة بين الدين والاكتئاب؟ وبتعبير آخر هل هناك تأثير إيجابي للدين على مرض الاكتئاب؟ فـ(Koenig) الذي له بحوث كثيرة في موضوع العلاقة بين الاكتئاب وبين الذين يذهبون إلى الكنيسة، توصّل في ٥٩ من أصل ٩٣ بحثا ميدانيا إلى أن نسبة عدم الاستقرار النفسي النابع من الاكتئاب لدى الذين يكثرون من المشاركة في طقوس العبادات الدينية أقل من غيرهم، وبالتالي فهؤلاء يقل لديهم ظهور أعراض هذا المرض.

ومن أوسع البحوث في هذا الميدان هو ما قام به (Larson) و(Koenig) سنة ٢٠٠١، حيث قاما بالبحث عن علاقة التدين بالصحة من أبعاد مختلفة، فقاما بتقييم ٨٥٠ عملا، ووصلا في النتيجة إلى أن هناك علاقة إيجابية بين التدين والرضى عن الحياة.

وفي بحثهما عن العلاقة بين التدين وبين الاكتئاب والقلق، وصلا إلى أن ثلثي التجارب أظهرت أن الذين نسبة التدين لديهم عالية هم أقل تعرضا للاكتئاب والقلق.[٤]

وأما نتائج الأعمال الفردية في هذا المجال فهي كالآتي: قام (Koenig) وزملاؤه ببحث أجروه على ١١١ مسنا مكتئبا، وبعد متابعة استغرقت حوالي سنة ظهر أنه بالإضافة إلى الفعاليات الدينية كالمواظبة على الكنيسة وقراءة الإنجيل كان للعقيدة أو الحياة الدينية الخالصتين تأثير مهم على مرضى الاكتئاب، وثبت أن نصف المرضى قد شفوا من دون تلقي أي علاج طبي.

فهؤلاء الباحثون مع أنهم لم يشرحوا آليات هذه النتيجة إلا أنهم ادعوا أن العقيدة الدينية قد أكسبت هؤلاء المرضى نظرة أفضل نحو الحياة وحققت لهم فهما وتقبلا للأوجاع والموت.

ومن جانب آخر، أبدوا أن العقيدة الدينية تُكسب المسنين "تصميما قويا للذات"، بمعنى أنها تساهم بشكل أفضل وأصح على تعرفهم وتقييمهم لجوانب ضعفهم وقوتهم والتعرف على هويتهم، وأن هذا يعتبر مساندة مهمة في فترة الشيخوخة التي تختل صحة الإنسان فيها. بالإضافة إلى أن الدين يؤمّل الإنسان بأن الظروف مهما كانت وأن الإنسان مهما واجه من مشاكل، فإن الأمور ستتحسن. وذلك يؤدي إلى بعث روح الأمل وتحسين الحالة العاطفية.[٥]

وفي البحث الذي قام به (Cummings) وزملاؤه على ٥٦٨ مريضا توصلوا إلى أن هناك علاقة بين الدعم الاجتماعي والتدين وبين الأعراض الاكتئابية والأمراض الوظيفية، وأن نسبة التعرض للاكتئاب أقل في الذين يتلقون الدعم الاجتماعي لدرجة عالية والذين يشاركون في النشاطات الدينية، وأن لهذا الأمر تأثيرا إيجابيا على المعاقين بدنيا، وأن للتدين من التأثير ما ليس لغيره من العوامل مثل التعليم، والجنس (الذكورة والأنوثة)، والحالة الاجتماعية (الزواج وعدمه).[٦]

وأظهرت البحوث التي أجريت في كندا على ٣٧ ألف شخص حول مدى العلاقة بين زيادة نسبة التدين والاكتئاب، أنه كلما زاد التدين قل العثور على الاضطرابات النفسية وحالات الجنون والاكتئاب والفوبيا الاجتماعي، وأن للتدين موقعا مهما في تفسير الإنسان للحياة ومقاومة تبعات الحياة اليومية وتحمل هموم الحياة وشدائدها.[٧]

فكيف يحد التدين من الاكتئاب أو يعدمه تماما؟

الباحثون يربطون هذا الأمر بالروح الجَماعي الذي يتكون بين أفراد الجماعة المتدينة نتيجة الدعاء والعبادة، وذلك يعود

بالطاقة المعنوية على أفراد الجماعة؛ لأن أفراد الجماعة لا يتعاونون فيما بينهم معنويا فقط، بل يتساندون من الناحية المادية أيضا. ولذلك تقل لديهم الأفكار والمشاعر السلبية مثل الإحساس بالعزلة والضعف وعدم التفاؤل وغياب الأهداف، وخصوصا إذا اعتبرنا أن من أسباب الاكتئاب الشعورَ بالوحدة، والانعزال عن المجتمع والأفراد، وضعف الروابط أو انعدامها بالكلية.(٨)

الانتحار والعقيدة الدينية

إن الأبحاث التي تجرى في عصرنا تصادق على ما توصل إليه "دوركايم" قبل قرابة قرن؛ إذ من المعلوم أن طرحه الأساسي كان نحو فكرة القول بأن التنظيمات الدينية عوامل مهمة في حماية منتسبيها من الانتحار. فهو لإثبات رأيه هذا قام بمقارنة بين الكاثوليك والبروتستانت، وتوصل إلى أن نسبة حوادث الانتحار في المجتمعات التي تعتنق مذهب الكاثوليك أقل منها في البروتستانتيين. والسبب الأهم لهذا -حسب رأي دوركايم- هو التنظيمات أو الترتيبات الاجتماعية التي تقيمها أصحاب الأديان أو المذاهب. فالذين يشتركون في الدين لا يتشاركون بالعقيدة فحسب بل يتعدى هذا إلى تقاسم القيم نفسها في القضايا الأخلاقية والأسرية والأعمال الاجتماعية. فهذا البناء المتجانس سيؤثر لا محالة على صحتهم النفسية إيجابيا.

إن محاولات الانتحار مع أنها تكون في كل الفئات العمرية إلا أنها تعد مشكلة أهم بالنسبة للمسنين؛ فالمتخصصون الأمريكيون يذكرون أن ١٠-١٣٠٪ من المسنين في مجتمعهم يعانون من مشاكل نفسية، ويقرر هؤلاء أنه إن لم يعالَج هؤلاء المسنون فستزيد نسبة حوادث الانتحار بينهم بنسبة ٥٠٪. إضافة إلى أن الانتحار في المجتمعات الغربية لا يشكل عنصرا مهددا للشيوخ فحسب بل يهدد الشباب أيضا. فنسبة التصرفات المتعلقة بالانتحار في أوساط الشباب تتراوح ما بين ٤-٦٠٪.(٩) وهذا الفرق الإحصائي الكبير بين البيانات نابع من تفاوت الآراء حول عد بعض التصرفات انتحارية أو لا، لأن هذا ينطبق على سلسلة من التصرفات، بدءا من نية الانتحار وانتهاء بتحقيقه بالفعل. وهذه تسمى في اصطلاح علم النفس "عوامل الخطر". وتأتي على رأس هذه العوامل القابليةُ العائلية لهذا المرض، والاكتئابُ، وتعاطي المخدرات، والروح العدائية، وكون أحد أفراد العائلة قد انتحر من قبل... إلخ.

ومن عوامل الانتحار أيضا التكوين الجيني والتشوهات الخلقية، والروح العدائية، وسرعة الغضب، وضعف القابلية على حل المشاكل، واليأس. ويشكل الاكتئاب عامل خطر لدى النساء أكثر منه للرجال.(١٠)

وقد أظهرت معظم البحوث التي تناولت العلاقة بين التدين والانتحار أن هناك تناسبا عكسيا بينهما؛ إذ من المعلوم أن الإسلام يحرم الانتحار تحريما قطعيا كما أن الديانات الأخرى لا تجيزه.

البحوث الأخرى التي أجريت في هذا المجال أثبتت أن الدين من أكبر العوامل التي تساعد الإنسان على مقاومة تأثير شتى بواعث الضغوط النفسية التي تؤدي إلى الاكتئاب أيضا. وقد لوحظ أن الذين يقومون بواجبات عقائدهم الدينية تقل لديهم نسبة التعرض لـ"عوامل الخطر" التي تؤدي إلى الانتحار مثل إدمان المخدرات والاكتئاب والقنوط.

وأسفر بحث آخر عن أن نسبة حوادث الانتحار في الذين لا يذهبون إلى الكنيسة أكبر بأربعة أضعاف، بالمقارنة بمن يواظبون على ذلك بشكل منظم. وأثبتت دراسة أقيمت في ٢٥ دولة أن هناك تناسبا عكسيا بين التدين والانتحار.(١١)

فالدين -على عكس النظم الرأسمالية- يشجع على عيش أبسط وبذلك يحد من الانتحار. فعلى سبيل المثال: الديانات التي ترفع من شأن الفقر (مثل الديانات الشرقية، والنصرانية) أو التي تبجل الاعتدال في الحياة (كما هو في الإسلام) تحفظ الإنسان من الوقوع في مأزق الانهماك في كسب المنافع المادية. وهذا النوع من العقيدة يستطيع أن يساهم في الحفاظ على الصحة النفسية للأفراد.

التدين والقلق

أجريت ٧٦ تجربة حول البحث عن العلاقة بين الدين والقلق (٦٩ منها بحوث ميدانية و ٧ سريرية)، فأسفرت ٣٥ منها عن أن نسبة عناصر القلق والخوف لدى الذين يتمتعون بمستوى عال من التدين أقل مقارنة بالذين يقل لديهم التدين. وفي ١٧ منها لم يعثر على أي علاقة. وفي ٧ منها عثر على علاقات معقدة ومتشابكة، وفي عشرة منها كانت نسبة القلق والخوف لدى الذين مستوى التدين لديهم عالية أكثرَ من قليلي التدين.

ومن أهم الجوانب في هذا البحث أنه ظهر في ٦ من أصل ٧ من البحوث السريرية التي تناولت مستوى العلاقة بين التدين والقلق أن للدين موقعا مهما في التخلص من القلق.(١٢)

الخوف من الموت

من المعلوم أن من أهم أنواع القلق لدى الإنسان الخوف من الموت؛ فالموت الذي هو خارج إرادة الإنسان يبعث في نفس

كثـير من الناس القلق والخوف. ومـع ذلك فالخوف من الموت يختلف من شخص لآخر. وهناك عوامل عديدة تؤدي إلى زيادة الخوف من الموت أو قلته. ويأتي على رأس هذه العوامل مستوى التدين والإيمانُ بالآخرة والروحانيةُ والعمر. ففي دراسة أجريت على ١٣٢ امرأة و ٦٤ رجلا تتـراوح أعمارهم بين ١٨-٨٠ توصل الباحثـون إلى أن العامل الحاسـم في الخوف من الموت هو النضج النفسـي-الاجتماعي، ويليـه في التأثير عامل العمر. وأظهرت هذه الدراسة أنه كلما ارتفع مستوى النضج الاجتماعي والعمـر يقل معدل التعـرض للقلق والخوف مـن الموت.(١٣)

وفي حين أن العقائد والتصرفات والمواقف الدينية تحول دون الوقوع في الأوضاع السـلبية كالاكتئاب والانتحار والقلق، أو تعدمها تماما، تكون وسيلة لأن يكون الأفراد في وضع أفضل من حيث الصحة النفسية.

وإليك نماذج من بعض الدراسات التي أجريت في هذا المجال:

الدين والتفاؤل

هناك دراسة أجريت حول العلاقة بين العقائد والتطبيقات الدينية وبين الشـعور بالأمل، فأسـفرت ١٢ من أصل ١٥ عملا عن وجود علاقة إيجابية بدرجة مهمة بين الأمرين، بينما أسفر عملان عن عدم وجود أي علاقة بينهما. ولكن لم يسـفر أي عمل عن أن المتدينين هم أقل تفاؤلا وأملا من غير المتدينين.(١٤)

ومن أهم إسـهامات الدين في الصحة النفسـية هو الشعور بالتفـاؤل. فقـد قـام (Peterson) و(Seligman) و(Vaillant) بدراسـة على ١٠٠ من خريجي جامعـة "هارفارد" فتوصلوا في النتيجة إلى أن الذين كانوا متشـائمين في مرحلة شبابهم، كانوا بعد (٢٠-٣٠) سـنة أسـوأ من الناحية الصحية من المتفائلين.

وكذلـك ثبت أن هناك فرقا حـوالي ٧-٧,٥ في العمر بين ذوي الشخصية الإيجابية وذوي الشخصية السلبية. وبتعبير آخر: إن الذين يتحلون بشـخصية ذات نظرة إيجابية هم أطول أعمارا من غيرهم لمدة ٧-٧,٥ عاما. فالباحثون يشـرحون هذا الأمر بقوة حب الحياة لدى هـؤلاء الأفراد، وتركيزهم على الجوانب الإيجابية لمرحلة الشيخوخة.(١٥)

وقد قـام (Plante) وزملاؤه ببحث على ٢٤٢ طالبا جامعيا يقيمون في مناطق مختلفة، ويعتنقون مذاهب دينية مختلفة، ويدرسون في مؤسسات تعليمية مختلفة، فوجدوا أن نسبة إضفاء المعنى على الحياة والتفاؤل ومساعدة الغير ورؤية الحياة على أنها صراع بالمعنى الإيجابي، أعلى في أوسـاط الطلبة الذيـن يتمتعون بعقيدة قوية، وبالمقابل فنسبة تعرض هؤلاء للاكتئاب والقلق أقل من غيرهم.(١٦)

الدين والسلامة النفسية

مـن المعلوم أنه بتقدم العمر يتوقف التحسـن في الصحة البدنية والنفسـية فيأخذ شـكلا ثابتا أو يتجه نحو الأسوأ. ومع أن هذا الوضع أكثر عند الرجال، إلا أنه يختلف من شـخص لآخر. فإنه في حين أن البعض يتأقلم بشـكل جيد مع أعراض الشـيخوخة كالأمراض المزمنة وحالات الضعف والاحتياج إلى مساعدة الغير، يتأثر آخرون سلبيا. فالباحثون يرون أنه في مثل هذه الحالات يكون للديـن والحياة الروحانية دور كبير من حيث الصحة النفسـية.

فقد أثبتت التجارب أن هنـاك علاقة بين العقائد والأعمال الدينية وبين سـائر المؤشـرات على كون الإنسـان يلبي رغبته في الحيـاة ويحظى بالسـعادة وبمعنويات عاليـة. فهناك ١٠٠ دراسـة حول العلاقة بين هذه العناصر البناءة أسـفرت ٨٠٪ منهـا عن وجود علاقة إيجابية بينها فعـلا، بينما أظهرت ١٠٪ منهـا احتمال وجود علاقة بين العقائـد والأعمال الدينية وبين السـلامة النفسية، و ٩٪ منها أنه سـيكون الدين وسيلة لتمتع الذين خضعوا للدراسـة بسلامة نفسـية كبيرة في المستقبل.(١٧)

وقام (Kirby) و(Coleman) و(Daley) بدراسـة على ٢٣٣ شخصا تتراوح أعمارهم بين ٦٥-٩٥، فوجدوا أن للشيخوخة وأعراضها السـلبية تأثيرا سلبيا على السلامة النفسية بشكل عام وبدرجة مهمة، إلا أنهم وجـدوا -في نفس الوقت- أن للتدين والعقائد الروحانية تأثيرا مباشـرا -أو بالواسطة- على إزالة هذه السـلبيات والحفاظ على السلامة النفسـية. ووجدوا أن للدين والحياة الروحية تأثيرا قويا على تحكم الفرد في البيئة وعلى تطويره الذاتي وإنشائه علاقات إيجابية مع الآخرين، في حين أن تأثيره على التقبل الذاتي، وإضفاء المعنى على الحياة، وروح الاسـتقلالية أقل نسبيا. والحقيقة أن هذه النتيجة بمثابة تأييد للعديد من الدراسات التي أجريت في هذا المجال.(١٨)

وكذلك قام (J. S. Levin) و(K. S. Markides) و(L. A. Ray) بدراسـة استغرقت ١١ عاما، على ثلاث مجموعات من الشباب ومتوسـطي العمر والمسـنين عدد كل مجموعة ٣٧٥، يتشكل مجموعهم من ١١٢٥ شـخصا حول تأثير المواظبة على العبادة، فتوصلوا إلى نتيجتين مهمتين:

إن هناك ارتباطا مهما بين المشـاركة في أداء العبادات وبين

الرضـى عن الحياة، والحد من الوقـوع في الاكتئاب؛ ففي حين ظهر لدى متوسـطي العمر والمسنين أن هناك علاقة بين المواظبة على أداء العبادات وبين الرضى عن الحياة، ظهر لدى الشـباب أن للعبادة تأثيرا إيجابيـا عليهم من حيث التأثير على الاكتئاب.

وعلى الرغم من أن الباحثين لم يعثروا على علاقة مباشرة بين المواظبة على أداء العبادات وبين الرضى عن الحياة، إلا أنهم يرون أن ذلك يكون في المدى البعيد بمثابة منبع للحفاظ على الاستقرار الروحي، وبتقدم العمر -على الخصوص- تشـكل المشـاركة في الأعمال الدينية أساسا مهما لإضفاء المعنى على حياتهم.

وهذا الوضع يكتسـب أهمية كبرى في حـال تدهور الحالة الصحية في فترة التقاعد، أو في حال التخلي عن الأعمال والأدوار الرسمية المؤسسية. خصوصا وإن مشاركة المسنين في أداء العبادات تكون وسيلة لاسـتفادتهم من الخدمات الاجتماعية التي توفرها لهم المؤسسـات الدينية من جهة، وتؤدي إلى الرضى الذاتي من جهة أخرى. وأيضا فالمواظبة على العبادات -من حيث إنها تقلل من الأسـباب المزمنة والقوية التي تورث الضغوط النفسية- فهي تشكل منبعا مهما لشعور الأفراد بصحة نفسية.(١٩)

النتيجة

على الرغم من أن بعض الجهات لم تتقبل وجود الدين وحاولت تهميشه، إلا أنهم لم يفلحوا في ذلك على مدى التاريخ، لأن الدين واقـع طبيعي ومؤثر في حياة الإنسـان ولا ينفك عنها؛ ففضلا عن دور الدين باعتباره منظمـا لحياة الفرد والمجتمع من خلال مبادئ وقوانين أخلاقية، يتضح جليا -بمرور الأيام وبالدراسات العلميـة التي تُجرى- أن له جوانـب مفيدة على الصحة البدنية والنفسية. فهناك دول عديدة -وعلى رأسها الدول التي وصلت إلى أوج النمو الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي- أخذت تطبق شتى الأساليب البديلة عن الطب الحديث. وللدين موقع مهم من بين تلك الأساليب؛ فالدين بما يضع من أسس اعتقادية وعملية، يقدم أسلوب حياة صحية، وعن طريق الدعم الاجتماعي يشجع الوحدة والسـعادة الاجتماعية، ومن خلال الدعاء يحد من القلق والضغوط النفسـية، وبفتحه للناس أبواب الأمل والرجاء يضفي على الحياة المعنى والهدف.

والحاصل أن معظم العلماء [الغربيين] -ناهيك عن إنكارهم لما للدين من الأثر الإيجابي على الصحة النفسية- يتناقشون لزوم اهتمـام علماء الطب الحديث لهذه الظاهـرة، ويرون أنه ينبغي للأطباء أن يأخذوا بنظر الاعتبار قيام مرضاهم بعباداتهم الدينية.

وأخيرا؛ لابد هنا مـن التنبيه إلى أمر هام وهو أنه إذا كانت الأديان التي ابتعدت عن روحها السـماوي تؤثر كل هذا التأثير المهم على الأفراد في المجتمعات الغربية، فليس من المبالغة الحديث عن مدى التأثير الإيجابي للدين [الإسلامي] الذي هو خاتم الأديان والدين الأكمل، على منتسبيه ومعتنقيه. ■

(*) جامعة ١٩ مايس / تركيا. الترجمة عن التركية: أجير أشيوق.

الهوامش

(1) Koenig, H. G. (2004). Religion, spirituality, and medicine: research findings and implications for clinical practice. Southern medical journal. 97 (12), p. 1195.

(2) http://www.istanbul.edu.tr/iletim/index.php?tm=5&sahypa=habaroka &haberno=6868 04.01.2007.

(3) Cohen, A. B. & H. G. Koenig. (2003). Religion, religiosity and spirituality in the biopsychosocial model of health and ageing. Ageing international, 28 (3), p. 220.

(4) Hackney, C. H. & G. S. Sanders. (2003). Religiosity and mental health: a meta-analysis of recent studies. Journal for the scientific study of religion, 42 (1), p. 44.

(5) Koenig, H. G., L. K. George & B. L. Peterson. (1998). Religiosity and remission of depression in medically ill older patients, pp. 538541-.

(6). Cummings, S. M., J. A. Neff & B. A. Hussaini. (2003). Functional impairment as a predictor of depressive symtomatology: the role of race, religiosity, and social support, pp. 2529-.

(7) Baetz, M. R. et al. (2006). How spiritual values and worship attendance relate to psychiatric disorders in the Canadian population. Canadian journal of psychiatry, 51 (10), pp. 654657-.

(8) Kennedy, G. J. et al. (1996). The relation of religious preference and practice to depressive symptons among 1,855 older adults. Journal of gerentology, 51b (6), p. 306; Westgate, C. E. (1996). Spiritual wellness and depression. Journal of counseling and development. 75, p. 31.

(9) Greening, L. & L. Stoppelbein. (2002). Religiosity, attributional style, and social support as psychological buffers for African American and white adolescents' perceived risk for suicide. Suicide and life-threatening behavior, 32 (4), p. 404.

(10) ibid., pp. 404405-.

(11) Weaver, A. J. & H. G. Koenig. (1996). Elderly suicide, mental health professionals, and the clergy: a need for clinical collobation, training, and research, p. 502; Commerford, M. C. & M. Reznikoff. (1996). Relationship of religion and perceived social support to self-esteem and depression in nursing home resident. The Journal of psychology, 130 (1), p. 43.

(12) Koenig, H. G. (2002). Religion and medicine II: religion, mental health, and related behaviors. International journal of psychiatri in medicine. 31 (1), p. 100.

(13) Rasmussen, C. A. & C. Brems. (1996). The relationship of death anxiety with age and psychosocial maturity. The journal of psychology. 130 (2), p. 143.

(14) Koenig, H. G. (2002)., ibid. 31 (1), p. 99.

(15) Cohen, A. B. & H. G. Koenig. (2003). İbid., p. 228.

(16) Plante, T. G. et al. (2000). The association between strength of religious faith and psychological functioning. Pastoral psychology. . 48 (5), pp. 406411-.

(17) Koenig, H. G. (2002). İbid.

(18) Kirby, S. E., P. G. Coleman & D. Daley. (2004). Spirituality and well-being in frail and nonfrail older adults, p. 127.

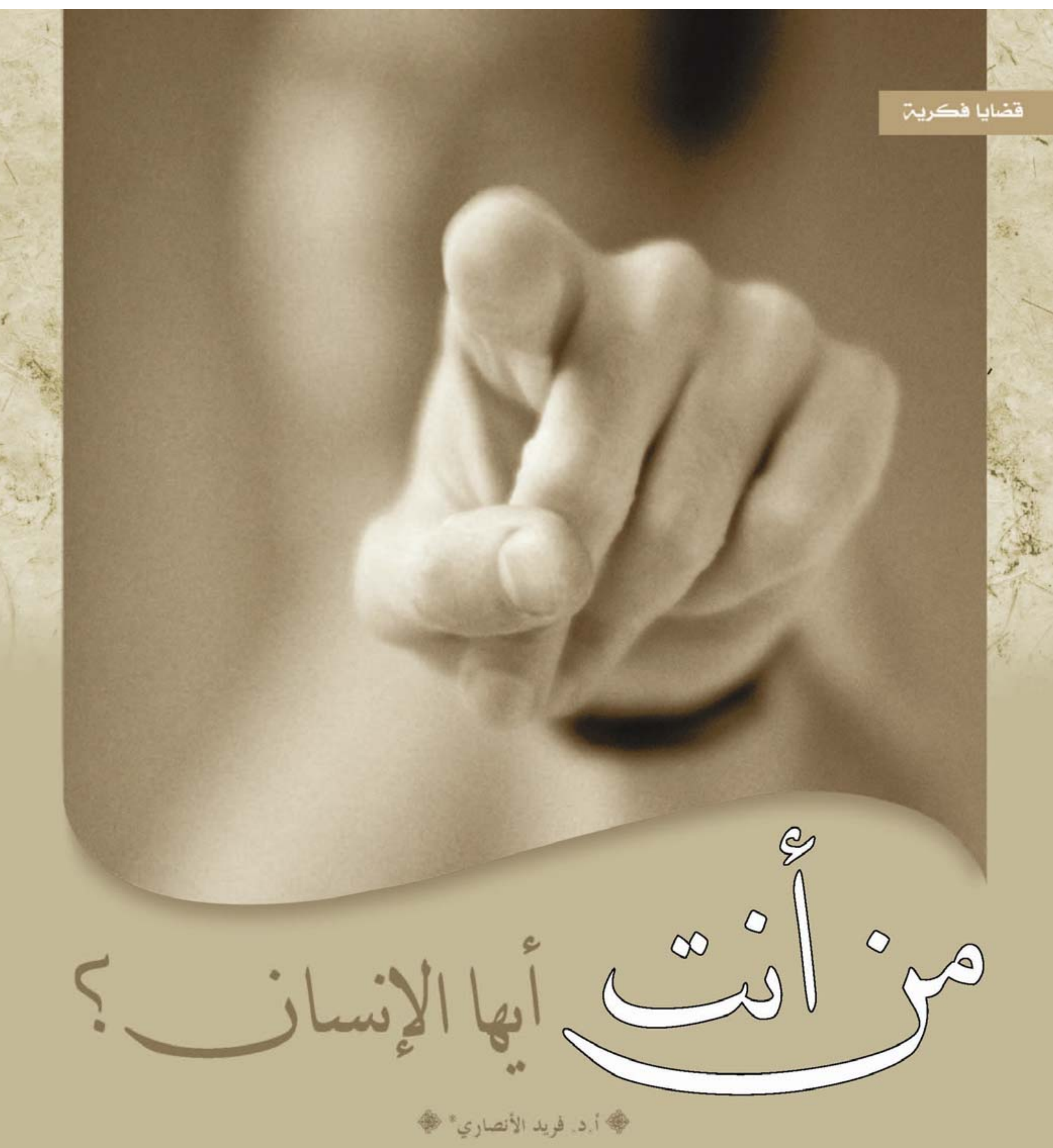
(19) Levin, J. S., et al. (1996). Religious attendance and psychological well-being in Mexican Americans: a panel analysis of three-generations data. The gerentologist. 36 (4), pp. 457461-.

يا ليالي الشوق عودي

أديب إبراهيم الدباغ*

يا ليالي الشوق عودي،
واشعلي الوجْدَ وزيدي،
فقد خَمّتْ ليالينا،
وجَفّتْ مآقينا،
ولم يَعُد يُجْدينا ويُحْيينا،
سوى شوقٍ يعَنّينا ويُضْنينا،
ويُشعل كل ما فينا،
من عفَنٍ وغسلينا...
نوّامةٌ ليالينا،
باردةٌ كالموت،
ساكنةٌ كالقبر،
ضائعةٌ كالتّيه،
فارغةٌ كالظلمة،
فيا ليالي الشوق عودي،
وقرّحي الأجفانَ،
وأيقظي النوّامَ،
واسكبي النيرانَ،
في أجواف موتانا،
مَلّنا الليلُ، بكانا شكانا، وإلى ربه نَعانا:
يا ربُّ: ما آنستُ ناراً،
ولا وجدتُ اصطلاءً،
أين الدموع الضارعات،
والأفئدة الراجفات،
والضمائر القادحات؟!
يا ويح الظلام،
ما أشرقَ ولا أورق،
ولا فاحَ ولا أزهر،
ولا بالنور أغدقَ واغدودق،
فيا ليالي الشوق عودي وأعيدي:
يقظات الخلود، الفائضاتِ الوجود،
المزدهراتِ الواجداتِ،
الساكباتِ الدمع الشاجنات،
الصابغات الآفاق، بمُذابِ الأشواق،
ومَدَامِعِ الآماق،
يا ليالي الشوق عودي،
وعَطّري ليلَ الوجود،
وأطوِعنا المسافاتِ،
والليالي الضارعاتِ...
وواصلينا، وبالوصال الموعود بشرينا،
وإلى لجج الأشواق ادفعينا،
لا تتركينا.. لا تتركينا...
يا سماء الشوق عودي وأشرقي، وامنحينا:
لَياليْنا الصافياتِ، بالنور مترعاتِ،
راكعاتٍ ساجداتِ، خائفاتٍ راجيات،
يا روحنا المحزون، يا دفين الليل،
يا مطوياً بين الظلمات،
متى تشقُّ الأكفانَ،
ومن سحيق الهوّاتِ تنبعث؟
ونجماً في سماء الشوق تتلألأ وتنير...

(*) كاتب وأديب عراقي.



من أنت أيها الإنسان؟

أ.د. فريد الأنصاري*

من أنت..؟ أنا، وأنت!.. ذلك هو السؤال الذي قلما ننتبه إليه! والعادة أن الإنسان يحب أن يعرف كل شيء مما يدور حوله في هذه الحياة، فيسأل عن هذه وتلك، إلا سؤالا واحدا لا يخطر بباله إلا نادرا، هو "من أنا؟". نعم، فهل سألت يوما نفسك عن نفسك: من أنت؟

ولعل أهم الأسباب في إبعاد ذلك وإهماله يرجع في الغالب إلى معطى وهمي، إذ نظن أننا نعرف أنفسنا فلا حاجة إلى السؤال، تغرنا إجابات الانتماء إلى الأنساب والألقاب، وتنحرف بنا عن طلب معرفة النفس الكامنة بين أضلعنا، التي هي حقيقة "من أنا؟" و"من أنت؟" ويتم إجهاض السؤال في عالم الخواطر؛ وبذلك يبقى الإنسان أجهل الخلق بنفسه، فليس دون الأرواح إلا الأشباح! ولو أنك سألت نفسك بعقلك المجرد: من أنتِ؟ سؤالا عن حقيقتها الوجودية الكاملة لما ظفرت بجواب يشفي الغليل! وإذن تدخل في بحر من الحيرة الوجودية!

أنا وأنتَ، تلك قصة الإنسان منذ بدء الخلق إلى يوم الناس هذا.. إلى آخر مشهد من فصول الحياة في رحلة هذه الأرض، وهي قصة مثيرة ومريرة!

القرآن يعرّف الإنسان بنفسه

ولذلك أساسا كانت رسالةُ القرآن هي رسالة الله إلى الإنسان؛ لتعريفه بنفسه عسى أن يبدأ السير في طريق المعرفة بالله؛ إذْ معرفة النفس هي أول مدارج التعرف إلى الله. وليس صدفة أن يكون أول ما نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(العلق:١-٢). ثم تواتر التعريف بالإنسان -بَعْدُ- في القرآن، في غير ما آية وسورة، من مثل قوله سبحانه: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ۞ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۞ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(الإنسان:١-٣) وكذلك آيات السيماء الوجودية للإنسان، الضاربة في عمق الغيب، من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۞ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۞ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾(السجدة:٦-٩).

ومن هنا أساسا كانت قضية الشيطان -بما هو عدو للإنسان- هي إضلاله عن معالم الطريق، في سيره إلى ربه، بدءا بإتلاف العلامات والخصائص المعرِّفة بنفسه، والكاشفة له عن حقيقة هويته، وطبيعة وجوده، حتى إذا انقطعت السبل بينه وبين ربه، ألَّهَ نفسَه، وتمرد على خالقه.

الإنسان بين صراع الحق والباطل

ولم يزل الإنسان في قصة الحياة يضطرب بين تمرد وخضوع في صراع أبدي بين الحق والباطل إلى الآن. فكانت لقصته تلك عبر التاريخ مشاهدُ وفصول! وكانت له مع الشيطان ومعسكره معاركُ ضارية، فيها كَرٌّ وفَرٌّ، وإقبالٌ وإدبار! قال ﷻ حكايةً عن إبليس: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۞ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ۞ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾(الإسراء:٦٢-٦٥). من أجل ذلك كان للإنسان في كل زمان قصة مع القرآن، وقصة مع الشيطان.

فيا حسرة عليك أيها الإنسان! هذا عمرك الفاني يتناثر كل يوم، لحظةً فلحظة، كأوراق الخريف المتهاوية على الثرى تَتْرَى! ارْقُبْ غروبَ الشمس كل يوم لتدرك كيف أن الأرض تجري بك بسرعة هائلة لتلقيك عن كاهلها بقوة عند محطتك الأخيرة! فإذا بك بعد حياة صاخبة جزءٌ حقير من ترابها وقمامتها! وتمضي الأرض في ركضها لا تبالي. تمضي جادةً غير لاهية -كما أُمِرَتْ- إلى موعدها الأخير! فكيف تحل لغز الحياة والموت؟ وكيف تفسر طلسم الوجود الذي أنت جزء منه ولكنك تجهله؟ كيف وها قد ضاعت الكتب كلها ولم يبق بين يديك سوى هذا "الكتاب"!؟

فأين تجد الهداية إذن يا ابن آدم، وأنى تجدها إن لم تجدها في القرآن؟ وأين تدرك السكينة إن لم تدركها في آياته المنصوبة -لكل نفس في نفسها- علامات ومبشرات في الطريق إلى الله؟ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۞ وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(الإسراء:٩-١٠).

نَعَم، بقي القرآن العظيم إعجازا أبديا، يحيي الموتى، ويبرئ المرضى، ويقصم قلوب الجبابرة، ويرفع هامات المستضعفين في العالمين، ويحوِّل مجرى التاريخ. وكل ذلك كان -عندما كان- بالقرآن، وبالقرآن فقط! وهو به يكون الآن، وبه يكون كلما حَلَّ الإبَّانُ من موعد التاريخ، ودورة الزمان على يد أي كان من الناس، بشرط أن يأخذه برسالته، ويتلوه حق تلاوته، وتلك هي القضية.

ماذا حدث لهؤلاء المسلمين؟ أين عقولهم؟ أين قلوبهم؟ أليس ذلك هو القرآن؟ أليس ذلك هو كلام الله؟ أليس الله رب العالمين؟ أليس الخلق -كل الخلق- عبيده طوعا أو كرها؟ ففيم التردد والاضطراب إذن؟ لماذا لا ينطلق المسلم المعاصر يشق الظلمات بنور الوحي الساطع، الخارق للأنفس والآفاق؟

حبل الله الممدود من السماء

ألم يقل الله في القرآن عن القرآن بالنص الواضح القاطع: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر:٢١). فهل هذه خاصية ماتت بموت محمد رسول الله؟ أم إن معجزة القرآن باقية بكل خصائصها إلى يوم القيامة؟ ورغم أن الجواب هو من المعلوم من دين الإسلام بالضرورة لكل مسلم، فإن رسول الله ﷺ يلقي البشرى إلى هذه الأمة نورا من الأمل الساطع الممتد إلى الأبد. فقد دخل عليه الصلاة والسلام المسجدَ يوما على أصحابه ثم قال: "أبشروا.. أبشروا..! أليس تشهدون ألا إله إلا الله وأني

رســول الله؟" قالو: بلى، قال: "إن هذا القرآن سَبَبٌ، طرفُه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعــده أبداً" (رواه ابن حبــان والبيهقي). ومثله أيضــا قوله ﷺ بصيغة أخرى: "كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض" (رواه الطــبري). تلك حقيقة القرآن الخالدة، ولكن أين من يمد يده؟

ألم يأن للمســلمين -وأهل الشأن الدَّعَوي منهم خاصة- أن يلتفتوا إلى هذا القرآن؟ عجبا! ما الذي أصم هذا الإنسان عن سماع كلمات الرحمن؟ وما الذي أعماه عن مشاهدة جماله المتجلي عبر هذه الآيات والعلامات؟ أليس الله جل ثناؤه هو خالق هذا الكون الممتــد من عالم الغيب إلى عالم الشــهادة؟ أليس هو جل وعلا رب كل شــيء ومليكه، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟ أوَليس الله هو مالــك الملك والملكوت، ذو العزة والجبروت؟ لا شيء يكون إلا بأمره، ولا شيء يكون إلا بعلمه وإذنه!؟ أوَليس الخلق كلهم أجمعون مقهورين تحت إرادته وسلطانه؟ فمن ذا قدير على إيقاف دوران الأرض؟ ومن ذا قدير على تغيير نُظُم الأفلاك في السماء من بعد ما ســوَّاها الله على قدر موزون؟ ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(فصلت:١١)، ومن ذا مِنَ الشيوخ المعمَّرين قديرٌ على دفع الهرم إذا دب إلى جسده، أو منع الوَهَنِ أن ينخر عظمه، ويجعد جلده؟ ويحاول الإنسان أن يصارع الهرم والموت، ولكن هيهات هيهات!

كَناطِحٍ صَخْرَةً يَوْماً لِيُوهِنَهَا   فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

الموت والفناء هو اليقينية الكونية المشــتركة بين جميع الخلق، كافرهم ومؤمنهم.

البعث القرآني

يولد الإنسان يوما ما، وبمجرد التقاط نفَسه الأول من هواء الدنيا يبدأ عمره في عَدٍّ عَكْسِي نحو موعد الرحيل، فكان البدءُ هو آية الختام. هكذا يولد الإنســان وبعد ومضة من زمن الأرض تكون وفاتــه، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْــهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(الرحمن:٢٦-٢٧).

ذلك هو الله رب العالمين، يرسل رسالته إلى هذا الإنسان العبد، فيكلمه وحيا بهذا القرآن، ويأبى أكثرُ الناس إلا تمردا وكفورا. فوا أسفاه على هذا الإنسان، ويا عجبا من أمر هؤلاء المسلمين، كأن الكتاب لا يعنيهم، وكأن الرسول لم يكن فيهم، ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(يس:٣٠).

إن هــذا القرآن هو الروح الذي نفخه الله في عرب الجاهلية، فأخرج منهم خير أمة أخرجت للناس، وانبعثوا بروح القرآن من رمــاد الموت الحضاري طيورا حية تحلق في الآفاق، وخرجوا من ظلمات الجهل ومتاهات العمى أدلاَّءَ على الله، يُبْصِرون بنور الله ويُبَصِّرون العالم الضال حقائق الحياة! ذلك هو سر القرآن، الروح الربــاني العظيم، لا يزال هو هو، روحا ينفخ الحياة في الموتى من النفوس والمجتمعات، فتحيا من جديد. وتلك حقيقة من أضخم حقائق القرآن المجيد، قال جل ثنــاؤه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًــا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَــابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَــاءُ مِنْ عِبَادِنَــا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْــتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾(الشورى:٥٢-٥٣).

مسؤولية الإنسان الوجودية

من أنت؟ تلك قصة النبأ العظيم، نبأ الوجود الضخم الرهيب، من البدء إلى المصير، النبأ الذي جاءت به النُّذُرُ من الآيات: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَــاخِصَةٌ أَبْصَــارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾(الأنبياء:٩٧). وقريبا جدا -واحسرتاه!- تنفجر به الأرض والسماوات، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّــجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾(الأنبياء:١٠٤).

ذلكم هــو النذير القرآني الرهيب! ولقد أعذر من أنذر! وما بقــي لمن بلغه النبأ العظيم من محيص، إلا أن يتحمل مســؤوليته الوجودية، ويتخذ القرار، قرارا واحدا من بين احتمالين اثنين، لا ثالث لهما: النور أو العَمَى، وما أنزل الله القرآن إذْ أنزله إلا لهذا، ولقد صَرَّفَه على مدى ثلاث وعشــرين سنة، آيةً آيةً، كل آية في ذاتها هي بصيرة للمستبصرين الذين شَاقَهُم نورُ الحق فبحثوا عنه رَغَباً ورَهَباً عســى أن يكونوا مــن المهتدين. وبقي القرآن بهذا التحدي الاســتبصاري يخاطب العُمْيَ من كل جيل بشري، قال الحقُّ جل وعلا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾(الأنعام:١٠٤).

من أجل ذلك؛ نرجع آئبين إلى رسالة الله، نقرؤها من جديد، نســتغفره تعالى على ما فرطنا وقصرنا، قدوتنا في هذه الســبيل رسول الله ﷺ بســنته الزكية التي لم تكن في كل تجلياتها النبوية -قولا وفعلا وتقريرا- إلا تفســيرا للقرآن العظيم. وكفى بكلمة عائشــة أم المؤمنين في وصفه عليه الصلاة والسلام لما سئلت عن خُلقــه ﷺ فقالت بعبارتها الجامعة المانعــة: "كان خُلُقُه القرآن"

(رواه مسلم). ولقد ضل وخاب من عزل السنة عن الكتاب.

التّمسيك بالكتاب وإقامُ الصلاة

نرجع إذن إلى القرآن، نحمل رسالته إن شاء الله -كما أمر الله- نخوض بها تحديات العصر، يحدونا اليقين التام بأن لا إصلاح إلا بالصلاح، وأن لا ربانية إلا بالجمع بينهما، وأن لا إمكان لكل ذلك -صلاحاً وإصلاحاً وربانيةً- إلا بالقرآن المجيد. وهو قول الحق -جل ثناؤه- في آية عجيبة، آية ذات علامات - لمن يقرأ العلامات- ولكل علامة هدايات. قال تعالى ذكْرُه: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾(الأعراف:١٧٠) التَّمْسِيكُ بالكتاب، وإقامُ الصلاة أمران كفيلان برفع المسلم إلى منزلة المصلحين، هكذا: ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾. وإن تلك لآية، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾(آل عمران:٧٩). وقد قُرِئَتْ: ﴿تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ و﴿تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ للجمع بين وظيفتي التَّعلُّم والتعليم، والصلاح والإصلاح، إذْ بذلك يكون التدارس لآيات القرآن العظيم، بما هي علامات دالة على الله، وراسمة لطريق التعرف إليه جل وعلا، في الأنفس والآفاق. وتلك هي السبيل الأساس للربانية، كما هو واضح من دلالة الحصر المستفادة من الاستدراك في الآية: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾.

مفهوم القرآن

ولنسأل الآن ما القرآن؟ ما هذا الكتاب الذي هز العالم كله، بل الكون كله..؟ أجمع العلماء في تعريفهم للقرآن على أنه "كلام الله"، واختلفوا بعد ذلك في خصائص التعريف ولوازمه، ولا نقول في ذلك إلا بما قال به أهل الحق من السلف الصالح. وإنما المهم عندنا الآن ههنا بيان هذا الأصل المجمع عليه بين المسلمين: "القرآن كلام الله". هذه حقيقة عظمى، ولكن لو تدبرت قليلا..

الله جَلّ جلاله خالق الكون كله.. هل تستطيع أن تستوعب بخيالك امتداد هذا الكون في الآفاق؟ طبعا لا أحد له القدرة على ذلك إلا خالق الكون ﷻ. فالامتداد الذي ينتشر عبر الكون مجهول الحدود، مستحيل الحصر على العقل البشري المحدود. هذه الأرض وأسرارها، وتلك الفضاءات وطبقاتها، وتلك النجوم والكواكب وأفلاكها، وتلك السماء وأبراجها، ثم تلك السماوات السبع وأطباقها... إنه لضرب في غيب رهيب لا تحصره ولا ملايين السنوات الضوئية. أين أنت الآن؟ اسأل نفسك.. أنت هنا في ذرة صغيرة جدا، تائهة في فضاء السماء الدنيا، الأرض. وربك الذي خلقك، وخلق كل شيء، هو محيط بكل شيء قدرة وعلما.. هذا الرب الجليل العظيم، قدَّر برحمته أن يكلمك أنت، أيها الإنسان، فكلمك بالقرآن.. كلام الله رب العالمين. أوَ تدري ما تسمع؟ الله ذو الجلال رب الكون يكلمك ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾(طه:١٣). أيّ وجدان وأيّ قلب يتدبر هذه الحقيقة العظمى فلا يخر ساجدا لله الواحد القهار رغبا ورهبا؟ اللهم إلا إذا كان صخرا أو حجرا. كيف، وها الصخر والحجر من أخشع الخلق لله؟ ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر:٢١)، وهي أمثال حقيقة لا مجاز، ألم تقرأ قول الله تعالى في حق داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ۞ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾(ص:١٨-١٩)، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأعراف:١٤٣).

كلام الله هو كلام رب الكون، وإذا تكلم سبحانه تكلم من عل، أي من فوق، لأنه العلي العظيم ﷻ، فوق كل شيء، محيط بكل شيء علما وقدرة. إنه رب الكون.. فتدبر: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾(فصلت:٥٤). ومن هنا جاء القرآن محيطا بالكون كله، متحدثا عن كثير من عجائبه. قال تعالى في سياق الكلام عن عظمة القرآن: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۞ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ۞ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ۞ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(الواقعة:٧٥-٨٢). سبحانك ربنا ولا بأي من آياتك نكذب.

تالي القرآن متصل ببحر الغيب

ذلك هو القرآن.. كلام من أحاط بمواقع النجوم خلقا، وأمرا، وعلما، وقدرة، وإبداعا. فجاء كتابه بثقل ذلك كله، أنزله على محمد ﷺ، من بعدما هيأه لذلك، وصنعه على عينه سبحانه جل وعلا، فقال له: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزمل:٥). ومن هنا لما كذب الكفار بالقرآن، نعى الله عليهم ضآلة تفكيرهم، وقصور إدراكهم، وضعف بصرهم عن أن يستوعبوا بعده الكوني الضارب في بحار الغيب، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ

اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(الفرقان:٥-٦). وإنه لرد عميـــق جدا. ومن هنا جاء متحدثا عن كثير من الســـر في الســـماوات والأرض. قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾(الكهف:٥٤). وقال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾(فصلت:٥٣-٥٤).

فليس عجبا أن يكون تالي القرآن متصلا ببحر الغيب، ومأجورا بميزان الغيب، بكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها، والحرف إنما هو وحدة صوتية لا معنى لهـــا في اللغة، نعم في اللغة، أما في القرآن فالحرف له معنى، ليس بالمعنى الباطني المنحرف، ولكن بالمعنى الرباني المستقيم. أوَ ليس هذا الحرف القرآني قد تكلم به الله؟ إذن يكفيه ذلـــك دلالة وأيّ دلالة، ويكفيه ذلك عظمة وأيّ عظمة. فعن ابن مســـعود ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: "من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول "ألم" حرف، ولكن ألـــف حرف، ولام حرف، وميم حـــرف" (رواه الترمذي).

ولذلك كان لقارئ القرآن ما وعده الله إياه من رفيع المنازل في الجنان العالية، وما أسبغ عليه من حلل الجمال. قال رسول الله ﷺ: "يقـــال لصاحب القرآن: اقرأ وَارْقَ، ورَتِّلْ كما كنت ترتل في دار الدنيا، فإن منـــزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها"(رواه أحمد والترمـــذي)، وقال أيضا: "يجيء القرآن يوم القيامة فيقول: يا رب، حَلِّـــهِ، فيُلْبَسُ تاجَ الكرامة، ثم يقول: يـــا رب زِدْهُ، فيُلْبَسُ حُلَّةَ الكرامـــة، ثم يقول: يا رب ارْضَ عنه، فيرضى عنه، فيقول: اقرأ، وَارْقَ، ويُزَادُ بكل آية حسنة" (رواه الترمذي)، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(الجمعة:٤).

إنه تعالى تكلم، وهو ﷻ متكلم، سميع، بصير، عليم، خبير، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، نثبتها كما أثبتها السلف، بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشـــبيه. لقد تكلم ﷻ، وكان القرآن من كلامه الذي خص به هذه الأمة المشـــرفة، أمة محمد عليه الصلاة والســـلام. فكان صلة بين العباد وربهـــم، صلة متينة، مثل الحبل الممدود من الســـماء إلى الأرض، طرفـــه الأعلى بيد الله، وطرفه الأدنى بيد من أخذ به مـــن الصالحين. قال ﷺ في خصوص هذا المعنى من حديث ســـبق: "كتاب الله هـــو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض". وقال في مثل ذلك أيضا: "أبشروا.. فإن هذا القرآن طرفه بيد الله و طرفه بأيديكم، فتمســـكوا به، فإنكم لن تهلكوا، و لن تضلوا بعده أبدا" (رواه الطبراني). وروي بصيغة أخرى صحيحة أيضا فيها زيادة ألطف، قال ﷺ: "أبشـــروا.. أبشروا.. أليس تشـــهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟" قالوا: بلى، قال: "فإن هذا القرآن ســـبب، طرفه بيـــد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدا".

أهل القرآن هم أهل الله

هي الرســـالة وصلت من رب العالمين إليك أيها الإنسان، فاحذر أن تظنك غير معني بها في خاصة نفسك، أو أنك واحد من ملايير البشر، لا يُدْرَى لك موقع من بينهم، كلا، كلا! إنه خطاب رب الكون، فيه كل خصائص الـــكلام الرباني، من كمال وجلال، أعـــني أن الله يخاطب به الكل والجـــزء في وقت واحد، ويحصي شـــعور الفرد والجماعة في وقت واحد، ﴿قُـــلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّـــمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَـــيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران:٢٩) سبحانه ﷻ، لا يشـــغله هذا عن ذاك، وإلا فما معـــنى الربوبية وكمالها؟ تماما كمـــا أنه قدير على إجابة كل داع، وكل مســـتغيث، من جميع أصنـــاف الخلق، فوق الأرض وتحـــت الأرض، وفي لجج البحر، وتحت طبقاته، وفي مدارات الســـماء... إلخ. كل ذلك في وقت واحد -وهو تعالى فوق الزمان والمكان- لا يشـــغله شـــيء عن شـــيء، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فبذلك المنطق نفســـه أنت إذ تقرأ القرآن تجد أنه يخاطبك أنت بالذات، وكأنه لا يخاطب أحدا سواك. احذر أن تخطئ هذا المعنى.. تذكر أنه كلام الله، وتدبر.. ثم أبصر!

قـــال ﷻ: ﴿أَفَـــلاَ يَتَدَبَّـــرُونَ الْقُـــرْآنَ أَمْ عَلَـــى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمـــد:٢٤). فتدبر..! ذلـــك هو القرآن، الكتاب الكوني العظيم، اقرأه وتدبر، فوراء كل كلمة منه حكمة بالغة، وسر من أسرار الســـماوات والأرض، وحقيقة من حقائق الحياة والمصير، ومفتاح من مفاتيح نفسك السائرة كرها نحو نهايتها. فتدبر.. إن فيه كل ما تريد. ألســـت تريد أن تكون من أهل الله؟ إذن عليك بالقرآن، اجعلـــه صاحبك ورفيقك طول حياتك تكن من "أهل الله" كما في التعبير النبوي الصحيح. قال عليه الصلاة والســـلام: "إن لله تعالى أهلين من الناس، أهل القرآن هم أهل الله، وخاصته" (رواه أحمد والنسائي وابن ماجه). ■

(*) جامعة مولاي إسمعيل، ورئيس المجلس العلمي بـــ"مكناس" / المغرب.

الرازي

بين الطب التجريبي والملاحظة الإكلينيكية



أ.د. بركات محمد مراد *

ولد أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الملقب بجالينوس العرب حوالي عام (٢٥٠هـ/٨٦٤م) في "الري" بالقرب من طهران. واعتبرت حياته نموذجا لحياة الأفذاذ الموهوبين المتعددي المواهب، فهو فيلسوف وطبيب وعالم طبيعي. امتاز بعقلية تركيبية موسوعية ونشاط وصبر على الدراسة والتحصيل والتجريب في مختلف العلوم الطبيعية، ابتداء من الكيمياء والصنعة وانتهاء بعلوم الطب والملاحظات الإكلينيكية (السريرية) الدقيقة. وقد وصف البيروني هذا النشاط العلمي خير وصف في كتاب له عن مؤلفاته عندما قال عنه: "كان دائم الدرس شديد الاتباع، يضع سراجه في مشكاة على حائط يواجهه، مسندا كتابه إليه كيما إذا غلبه النعاس سقط الكتاب من يده فأيقظه ليعود إلى ما هو عليه".

الرازي والقراءة

ويقول ابن أبي أصيبعة ناقلا عن أحد معاصريه: "ولم يكن يفارق المدارج، وما دخلتُ عليه قط إلا ورأيته ينسخ، إما يسوّد أو يبيّض". وقد بلغ من صبره واجتهاده في ميدان المعرفة أنه كتب بخط مثل خط التعاويذ في سنة واحدة أكثر من عشرين ألف ورقة واستمر في تأليف "الجامع الصغير" خمس عشرة سنة ليلا ونهارا، وهو دليل على التأني والجودة.

ولكثرة انكبابه على الكتب والقراءة على أنوار القناديل ضعف بصره، واختتم أمره بالعمى ونزول الماء في آخر عمره على عينيه. ولم تطل أيامه بعد مرضه، وتوفي بـ"الري" عام (٣١٣هـ/٩٢٥م). وفي أوج نشاطه أصبح كبير أطباء مستشفى "الري" حيث مارس مهنة التطبيب محاطا بتلاميذه وتلاميذ تلاميذه. وكان إذا قدم مريض فحصه التلاميذ، وإذا استعصى عليهم تشخيص المرض قدموا إليه المريض. وكان الرازي أيضا رئيس أطباء مستشفى بغداد. ولكثرة ممارسته للطب ومباشرته لعلاج المرضى في مختلف التخصصات، تراكمت عنده معرفة علمية إضافة إلى قراءته النظرية للتراث الطبي اليوناني. لذلك صار الرازي أول من أظهر أهمية الطب الإكلينيكي أو السريري في الحضارة الإسلامية. ولم يغفل الطب النفساني، فقد كتب عنهما في مؤلفاته باستفاضة غير مسبوقة، كما صنف في الكيمياء وأسرارها والعقاقير وتحضيرها، بل ويعتبر واضع أصول فلسفة النظريات الطبية في الإسلام، على الرغم من أنه ساعد على تطور أدب الطب وأخلاقيات ممارسة مهنة الطب والعمل في البيمارستانات.

وقد حارب الشعوذة في هذه المهنة وهاجم الجهلاء والمبتزين من الأطباء. ففي كتاب "المرشد" كان شارحا ومفندا فصول

أبقـــراط مبديا آراء أصيلة في تجـــارب الطبيب وأهمية علاقته مع مرضاه واعتباره كل مريض كفرد مستقل عن سواه، له شخصيته وتدبيره الخاص الذي ينفرد به بالنسبة لتاريخه وعاداته وبيئته، وما يناسبه من علاج ودواء.

وكان الـــرازي معاصرا للفارابي (٢٩٩هـــ). وقد اطلعا معا على كتب أرسطو في "التحليلات الثانية". وتنقل الرازي كثيرا، وكان لهذا أثره في اكتســـاب المعارف. فقد كان كثير الترحال حتى طاف بمصر وسورية والأندلس، وتنقل من بلاط إلى بلاط، وقد مارس الطب وجربه في كل مستشفى طرقها أو عمل فيها. وهو يشبه في هذا الترحال فيثاغورس وجالينوس وأفلاطون.

وقـــد قدره الدارســـون من الأوربيين حق قدره، شــــهد له "ستابلتون" الإنجليزي بعد أن درس كتبه الكيميائية بأنه "قد بقي بلا ند حتى بزوغ فجر العلم الحديث في أوربا".

آثاره وتراكمه العلمي

كتب الرازي كثيرا من المؤلفات بأسلوب رصين يجمع بين الإيجاز والعمق في دقـــة تحليل لكل ما يعرض له مـــن كتب ومؤلفات السابقين. فهو يشـــرح ويفسر ما في هذه الكتب ويجعلها أقرب إلى الطلاب وأيسر فهماً، في وقت كانت علوم الطب والكيمياء غريبة على العرب والمســـلمين، وتعد عندهم من علوم الأوائل. وكان عليه أن يبين لطلابه كيف يتقنون هذه الصناعة الشـــريفة والهامة، وكان عليه أن يبين رأيه في محنة الطب (امتحانهم)، وأن يهديهم إلى ما يعينهم في ممارستهم العلاج.

ولذلـــك يقول في أول كتاب "الفصول": "دعاني ما وجدت عليه فصول أبقـــراط من الاختلاط وعدم النظم والتقصير به عن ذكـــري جوامع الطب كلها مع ما مال إليه علمه من ســـهولة تعلق علم الفصول بالنفس إلى أن أذكر جوامع الصناعة وعلمها علـــى طريق الفصول.. ليكـــون مدخـــلا إلى الصناعة وطريقة للمتعلمين".

وله مثل هـــذا القول عن مؤلفات جالينوس، الذي كان يجله مع أبقراط أعظم إجلال، ولم يجد حرجا في أن يتسعين بمؤلفات الســـابقين من اليونان وبخبراتهم المدونـــة في تطوير مختلف العلوم الطبية. فقد كان الـــرازي يؤمن بخاصية التراكم العلمي، وكيف ينبغـــي أن تتواصل الحضارات وتتلاقـــح الثقافات مما يؤدي إلى تراكم العلـــوم والمعارف. ولذلك يقـــول في علم الطب: "هذه صناعة لا يمكن الإنســـان وحـــده إذا لم يحتذ فيها على مثال من تقدمه أن يلحق فيها كثير شـــيء، ولو أفنى جميع عمره فيها، لأن مقدارها أطول من مقدار عمر الإنســـان بكثير. وليســـت هذه الصناعـــة فقط، بل جل الصناعات كذلك. وإنما أدرك من أدرك من هذه الصناعة إلى هذه الغاية في ألوف من الســـنين ألوف من الرجال، فإذا اقتدى المقتدي صار كمن أدركهم كلهم في زمان قصير، وصار كمن قد عمّر تلك السنين".

وكان الـــرازي يؤمن بقوة اجتماع القـــراءة والمعرفة النظرية إلى جانب الخبرة واكتساب التجارب العملية. ويقول: "إن قليل المشـــاهدة (أي الخبرة) المطلع على الكتـــب خير ممن لم يعرف الكتـــب، على أن لا يكون عديم المشـــاهدة". ويقول: "من قرأ كتـــب بقراط ولم يخدم، أفضل ممن خدم ولم يقرأ كتب بقراط". ولذلك يقول الدكتور "محمد كامل حسين" في بحث علمي دقيق له عـــن طب الرازي: "لا تقاس عظمة الأســـتاذ بابتكاره، على الأقل في العصور الوســـطى، ولكن باســـتقراء مذهبه في التعليم ووضوح آرائه وأســـلوبه، وحسن شـــرحه وتفسيره، وله فضل كبير في الدعوة إلى تدبير المشاهدات. والتدوينُ أول المعرفة الحقة بالطب، ومثل هذا التدوين عمل تحضيري لابد منه قبل أن تكتب الكتب الطبية المستقرة. أما الرواد المبتكرون فليس لهم أن يقطعوا برأي في العلل والعلاج ما لم يسبق ذلك تدوين كثير واختيار لما هو حق وما هو باطل".

ورغم كل ذلـــك فقد أضاف الرازي إلى المعرفة الطبية كثيرا من المعارف والحقائق والنظريات والتجارب، وهو يهتم بتدريب الطبيب وامتحانه.

مؤلفاته وأثرها في الحضارات

ولم يمنعه اعتماده على كتب الســـابقين وشـــرحه وتفســـيره لها مـــن اعتراضه على كثير مما جاء بهـــا، خاصة عندما تتعارض مع ملاحظات طبية صحيحة، أملتها التجربة وأثبتها الواقع العلمي. ومن هنا لم يقصر في تدوين كل ما سمع وقرأ ورأى. وهذا ســـر كثرة تآليفه ورسائله العلمية التي دفعت البيروني إلى تصنيف رسالة لإحصاء عناوين هذه المؤلفات مع تبويبها في دراســـة ببليوغرافية مبكرة هي "فهرســـت كتب الرازي". ويحتوي هذا الثبت على كثير مـــن المؤلفات في الطب وفي الطبيعيـــات، وفي المنطق وفي الرياضيات والنجوم، وفي التفاسير والتلاخيص، وفي الفلسفة وما

وراء الطبيعة والإلهيات، وفي الكيمياء، وفي مواضيع شتى متنوعة.

ومن أهم مؤلفاته "السيرة الفلسفية" و"البرهان" و"شكل العالم" و"الطب الروحاني" و"الجامع" و"الحاوي" ومؤلفات في مختلف الأمراض كـ"الحصبة والجدري".

ويعتبر كتابه في "الحصبة والجدري" من أشهر مؤلفاته المبتكرة. وهو أول كتاب من نوعه في هذا الموضوع، ميز الرازي فيه بين المرضين، ووصف بدقة مميزاتهما وتشخيصهما، وهو يلمح في الإشارة إلى أهمية الفحص الدقيق للقلب والنبض والتنفس والبراز عند مراقبة المرض، ولاحظ أن ارتفاع الحرارة يساعد على انتشار الطفوح (Eruption) وأشار إلى وسائل وقاية الوجه والفم والعين وتجنب الندوب الكبيرة.

وقد امتاز الرازي بمواهبه الإكلينيكية (السريرية) الممتازة، وظهر هذا في أكبر مؤلفاته الطبية وأشهرها "الحاوي" (Continens). وهو موسوعة طبية تقع في أربعة وعشرين جزءاً حشد فيها معارف السابقين سواء كانوا يونانا أم فرنسا أم هنودا أم عربا مع النص بأمانة على صاحب الفكرة، مما يدل على غزارة اطلاعه وأمانته العلمية، كما ضمنه أهم أفكاره التجريبية والإكلينيكية في الطب، وخاصة تلك الممارسات السريرية التي كان أول من نبه عليها. ولم يبق من هذا الكتاب سوى اثني عشر جزءاً مبعثرة في مكتبات أوربا.

أما كتاب "المنصوري" فإنه كان أقل حجما من "الحاوي"، إلا أنه في نفس مستواه من الأهمية العلمية، وظفر بشهرة واسعة في القرون الوسطى. وهناك كتابه "منافع الأغذية" الذي يعتبر من رسائل أطباء العرب في حفظ الصحة، حيث اعتبر مبدأ "الوقاية خير من العلاج"، مبدأ أساسيا في عالم الطب. ورغم اهتمام الرازي بالجانب العملي من الممارسة الطبية، إلا أنه ينصح المعنيين بالطب بالتدوين؛ وله في ذلك رأي مستقر سار عليه هو نفسه فيقول: "إن كنت معنيا بالصناعة، وأحببت أن لا يفوتك ولا يشذ عليك منها شيء -ما أمكن- فأكثر جمع كتب الطب جهدك، ثم اعمل لنفسك كتابا تذكر فيه كل علة، ما قصر الكتاب الآخر وأغفله في كل نوع من العلل وحفظ الصحة الرتبة، من تعريف أو سبب أو تقسيم أو علامة أو علاج أو استعداد أو إنذار أو اعتراض، فيكون ذلك كنزا عظيما وخزانة عامرة". ومن هنا لم يكن عجيبا أن يصاب الرازي في آخر أيامه -من كثرة تدوينه- بمرض منعه الكتابة يسميه الأطباء (Witere Camp).

الطبيب والإكلينيكي

إن خير ما في تأليف الرازي وموضع فخره هو من غير شك مشاهداته الإكلينيكية وحسن إدراكه للدلالات، وصواب حكمه. إنه تفوق في التشخيص، وخاصة في ما يسمى بالتشخيص المقارن، وهو نوعان. والرازي متفوق في كلا النوعين، النوع الأول يتناول علامة من العلامات المرضية ثم يبحث في أسبابها وكيفية التفريق بين الأسباب المختلفة، ومثال ذلك قوله في احتباس البول. والنوع الثاني يتناول أمراضا متشابهة ويقارن بين علامات كل منها مقارنة توضح ما يجب الأخذ به عند التشخيص. وهذا واضح في كثير من رسائله التي حققها "بول كراواس".

وقد تمكن الرازي في التشخيص المقارن من التفريق بين القولنج وحصاة الكلي. والقولنج مرض يرد ذكره كثيرا في كتب القدماء، وهو مرض غير محدد الأعراض، وليس من السهل أن نضع له أسما حديثا -كما يقول أحد الباحثين- يوافق ما جاء عنه في تلك الكتب. ولكنه من غير شك مجموعة من الأمراض تتصل بالقولون، ومنها التهاب الزائدة الدودية، وهو مرض ظل أعراضه تختلط وأعراض التهابات القولون إلى عهد حديث جدا. ويرجح ذلك قول الرازي أنه يصيب الجهة اليمنى من البطن أكثر وبعض حالاته كان على الأرجح حالات انسداد معوي، وإن لم يبلغ حد الاختناق المعوي. وتتضح أهمية هذا الأمر أن التمييز بين التهاب الزائدة والمغص الكلوي، أمر لا يزال الأطباء في حاجة إليه حتى اليوم، والخلط بينهما كثير الوقوع.

دقته في الدلالات الطبية

وهناك كثير من الدلالات الطبية في رسائل الرازي ومؤلفاته، وكلها مفيدة لا غنى للطبيب الممارس عن تقصيها، وفيها دقة يقدرها كل طبيب غاية التقدير. على أننا لا نجد في التشخيص المقارن بين الحميات هذا الوضوح في تحديد العلامات ودلالاتها. ولا غرابة في ذلك، فلم يكن لهم أن يفرقوا بين الحميات المتشابهة بما يعمله الأطباء المحدثون من تحاليل، خاصة بعد تقدم الأدوات والأجهزة العلمية،

بل كان اعتمادهم الكلي على أشياء يصعب تحديد الحميات على أساسها، فكانوا ينظرون في الزمان والسن والمزاج والنبض والبول والنافض والعرق وكيفية الحرارة ومقدار النوائب والعطش وحال الأحشاء والقيء والبراز والسهر والنفس والصداع والتشنج.

وحار الأطباء القدماء -ولهم العذر في ذلك- في تقسيم الحميات. وكان جالينوس على حد قول الرازي يقسمها إلى حمى ورمية وحمى غير ورمية. والرازي يقسمها أصلا إلى حمى عرض وحمى مرض، وهو تقسيم جيد، وهو ما يفضله المؤلفون المحدثون. يقول الرازي: "حمى العرض تكون من ورم أو طحال أو الرئة أو الحجاب أو معي الصائم أو الجراحات أو الدبيلات أو في الدماغ، كالحال في قرانيطش وليثرغس"، ويقول عن حمى المرض إنها تكون بعفن أو بغير عفن، ثم يأخذ في تحليل أنواعها المختلفة.

وهناك نوع آخر من التشخيص المقارن يكون بوصف حالة مرضية وصفا دقيقا يمكن معه تشخيصها والتفريق بينها وبين الأمراض الأخرى التي تشبهها في بعض أعراضها، ومن ذلك شرح الدلالات التي تؤدي إلى ترجيح مرض على آخر. وللرازي في هذا تفريق واضح، وقوله في هذا الباب ممتع جدا.

ومن الحالات الجديرة بالذكر قوله: "رأيت رجلا تقيأ قطعة لحم أعظم من الجوزة، ولم يمت، فحدست أنه كان في معدته باصور كبير دقيق الأصل، انقطع ودفعته الطبيعة بالقيء". وهذه -كما يقول طبيب معاصر- حالة "Polypus" في المعدة وهي حالة نادرة، ولكن الرازي فهمها فهما جيدا. وله في وصف داء الكلب: "كان عندنا في المارستان منهم من يهيج بالليل. وكان رجل لا يشرب، وإذا قرب إليه الماء لم يخفه، لكن يقول: هو منتن. وفيه بطون الكلاب والنسانيس. ورجل كان إذا رأى الماء ارتعد واقشعر، وانتفض حتى ينحى عنه".

وهناك كثير من الحالات التي نشرها الدكتور "ماكس مايرهوف" في مجلة إيزيس، وهي مجموعة فريدة، وصف فيها الرازي ثلاثا وثلاثين حالة، وليس لها نظام واضح، وسبب ذلك أن الرازي اختارها من غير شك لتكون موضوع محاضرات إكلينيكية، وهي وإن يكن منها ما هو مذكور لغرابته وندرته، إلا أن أكثرها يصلح، بصفة خاصة، لشرح المبادئ العامة للتشخيص والعلاج. وهي مدروسة درسا وافيا في مقالة الدكتور "مايرهوف" ويمكن الرجوع إليها، ومنها يتبين أن قدرة الرازي في الطب الإكلينيكي أمر لا شك فيه، فيه دقة مشاهدة، وقوة المقارنة، وصدق الحكم، والقدرة على تمييز الدلائل وتقويمها، رغم تقيده بالنظريات اليونانية، ويكون في أحسن حالاته عندما يفزع للمشاهدة والمقارنة والاستنتاج، حين يكون بعيدا عن الشروح القائمة على الأخلاط والأمزجة.

الرازي طبيب وصيدلاني

وللرازي في علاج مرضاه مبادئ طبية هامة وناجحة بدأ الطب الحديث في العودة إليها واعتمادها مثل قوله: "ما قدرت أن تعالجه بدواء مفرد فلا تعالجه بدواء مركب"، وقوله: "الطبيب الحاذق من يبرئ بالأدوية الأدواء التي تعالج بالحديد مثل الخراجات، والعظام التي تتعرى من اللحم، ولا يحتاج في شيء منها إلى البط والقطع إلا أن يدعو إلى ذلك ضرورة ملحة، والذي يبرئ كثيرا من الأدواء بالأدوية والتدبير، والذي يقدر أن يعالج بدواء واحد عللا كثيرة". أليس في ذلك شبه كبير بقول الجراح موينهان: "إن الجراحة هي بلوغ غاية ما بالقوة لعجزنا عن بلوغها باللين".

وكان الرازي يرى أن لا يضيع الطبيب جهده في العلم بتعريف العقاقير وصفاتها على وجه الدقة إلا ما كان منه كثير الاستعمال. والظاهر أن الأطباء كانوا يتركون تركيب الأدوية للصيدلاني، وإن كان الرازي يقول: "إنه أعد للمريض كذا خمسة دراهم، وكذا ثلاثة دراهم" مما يدل على أن الطبيب كان أحيانا يعد الدواء بنفسه. ولدينا أمثلة من "الروشتات" التي كانوا يكتبون فيها الدواء للصيدلاني على نحو معروف عندهم. وكانوا يكتبون ذلك أحيانا بالرموز، وكثيرا ما كانت تكتب الأدوية باللاتينية والتعليمات بلغة المريض. وهو يرى أن الدواء المفرد خير، ولكنه لا ينكر من الأدوية ما يجب أن يكون مركبا، وهو يضع قواعد للتركيب ومقدار كل دواء مفرد في الأدوية المركبة، فيقول: "المقدار في التركيب يكون حسب غلظة الدواء وقوته وما يخشى ضرره في علة أخرى".

ويبدو أن براعة الرازي في علم الكيمياء ومعرفته بكل عملياتها قد ساعدته في هذا الجانب الصيدلاني من علم الأدوية أو الفارماكولوجي، على الرغم من أن كبار الأطباء كانوا يترفعون عن عمل اليد. ففي كتابه "الأسرار" له تدابير "تجارب" كثيرة ولا شك أنه قد قام بعدد كبير منها. وقد وصف الآلات والأدوات

التي تستخدم في التجارب وفي المختبرات كالكور والمنفخ والبوطقة والإنبيق والأقداح والقناني وصفا دقيقا. كما وصف عمليات التقطير والتصعيد والتشميع وأنواع التكليس والاحتراق، وحضر عددا من الأحماض منها زيت الزاج (حامض الكبريتيك) بتقطير الزاج الأخضر (كبريتات الحديدوز)، كما حضر الغول (الكحول) باستقطاره من مواد نشوية متخمرة، وحضر عددا من السوائل السامة من روح النشادر.

وهو كغيره من الأطباء القدماء والمحدثين شديد العناية بالغذاء، وله في ذلك أقوال طريفة، من ذلك قوله في "الفصول": "إذا اتفق أن يكون ما يشتهى العليل نافعا، كان كما يقال في المثل: أتم السعادة هوى وافق عقلا". وله مبدأ عام في العلاج الطبي، ذلك أن "الطبيعة تجاهد العلل وتعاركها، وتروم إحالتها. ومتى كانت وافية بالعلل لم يحتج إلى معونة الطبيب. ولذلك تسلم الأمم القليلة الاستعمال للطب كالأعراب ونحوهم من أمراض كثيرة".

الرازي والطب التجريبي

أما في جانب الطب التجريبي حيث يشرع دائما في التطور، هاجرا ميدان المذاهب ومتمسكا بالأسلوب التحليلي التجريبي، فقد برع الرازي فيه حيث يقول: "ما اجتمع الأطباء عليه وشهد عليه القياس وعضدته التجربة فليكن أمامك وبالضد".

وإذا كان الطب التجريبي يمثل في العصر الحديث أرقى مكانة، فإن للرازي فضل السبق إليه حيث أجرى تجاربه الطبية على الحيوان -القرد- قبل تجربتها على الإنسان، حيث إن البعض يتصور تحريم الإسلام لتشريح الحيوان. وكان الرازي أول من ميز عصب الحنجرة من غيره. ومن ابتكاراته في مجال الجراحة قوله: "لي غرض جراحات العصب ألا تعفن أولا، وألا تبرد ولا ترم، لأنه إن عفن زمن، وإن رم أو برد تشنج".

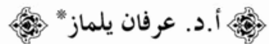
ويرى أن العضو المخلوع لا يرد على مكانه، لأنه يصير خبيثة: "كذلك يفعل أصحاب الجراحات، لأنهم قد عرفوا بالتجربة أنه يصير خبيثة فيقطعونها أبدا، والكي بالزيت بعد ذلك أحمد، يصنع أن يصير ما بقى قرحة رديئة، لكي تصير خشكريشة ثم تسقط وتبرأ بإذن الله". وهو يوجب الفصد في بعض الأمور: "أنا آمر بالفصد في جميع العلل الامتلائية والصعبة، وهي كالنقرش والرمد ووجع الكبد". وقد ثبت حديثا أن التجريب أساس عملي للطب، وأنه فيه أصعب منه في سائر العلوم. وكان للبيمارستان أثر كبير في حياة الرازي التجريبية، فقد جرب بنفسه أولا مكان بناء هذا البيمارستان بوضع قطع لحم في مواضع متفقرة، ثم أشار ببنائه في المكان الذي لم يهلك فيه اللحم بسرعة، وهو تثبت في الاستنتاج وحرص على كرامة الإنسان. وقد أشاد به بعض باحثي الغرب من أجل هذه الفكرة.

وقد استعان الرازي بمركزه كرئيس لبيمارستان بغداد، فحصل على ملاحظات تجريبية دقيقة وجرب بنفسه تطور المرض وتعدد أعراضه وتشابهها كما ذكرنا من قبل، فصار أعظم أطباء الطب الإكلينيكي (السريري) كما هو واضح في كتابه "الحاوي" وفي مؤلفاته المتخصصة الأخرى.

وفي الحقيقة فالتعرف على الرازي وفكره يبطل الادعاء القائل بأن العرب أو المسلمين لم يعرفوا المنهج العلمي. فإننا نجد الرازي مؤمنا بالمنهج العلمي السليم، منهج القوانين كلية وجزئية. ومثال الكلّيّ عنده "الحامض يدفع إسخان الحلو إعطاشه وتوليد المرارة وبتهييجه الدم وإحداثه للسدد". وهناك حالات جزئية لا نهاية لها ذكرنا بعضها من قبل في مؤلفاته. ويقول مستحسنا هذا المنهج: "من أجود الأمور ذات المعاني النافعة، أن نذكر كليّها مرة وجزئيّها أخرى، ليمكن ويستقر ويستتم مهمها في النفس ويعظم موقعها عندها، فيبادر إلى استعمالها، ولا يكل عنها استهانة بها". وإن اهتمام الرازي بالتقنين الكلي جعله يقيم تأليفه على أساس فكري ومنهجي حيث يؤلف "برء الساعة" و"السر في الصنعة"، وينص على أن كلا منهما دستور في الطب. وهي محاولة من الرازي للكشف عن العلاقة المتبادلة بين الكون والإنسان في صورة قوانين كلية لم يعرفها الإنسان إلا في العصر الحديث، حيث أصبح يرى أن البيئة الطبيعية ونظمها الإيكولوجية مترابطة متشابكة يؤثر بعضها في بعض ولا يشذ عنها أي إنسان. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

الهيكل العظمي يتكلم



أ.د. عرفان يلماز*

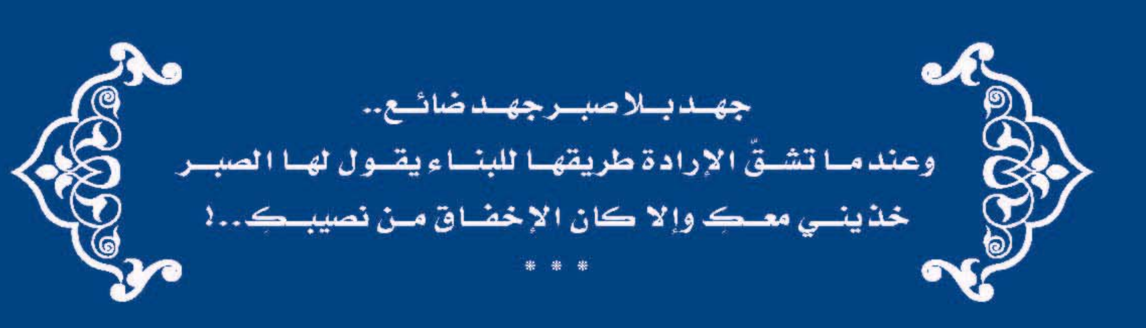
ع

عزيزي عبد الله..

قام العديد من أصدقائي الموجودين في جسدك بالكلام عن أنفسهم وشرح أهميتهم، فكل واحد منهم يقوم بوظيفة مختلفة خاصة به، وقد تعلمت أنت وظائفهم تلك. ولكن لم يخطر على بالك أن تسألهم أين يقعدون وإلى أي شيء يستندون. وبما أنه ما من شيء يستطيع الوقوف في الفراغ، إذن فلابد أن كل نسيج وكل عضو يحتاج إلى شيء يستند إليه أو يتعلق به. عندما تبني بيتا تضع فيه العديد من الأشياء والأثاث والستائر والمصابيح والأبواب والنوافذ. والقسم الأصلي للبناء هو القسم الخالي من الحيطان ولا يوجد فيه غير الأعمدة والسقوف والجسور الكونكريتية، ثم تبنى الحيطان ويتم تقسيم البناء، وهكذا يظهر أمامنا هيكل البناء. ولو لم يوجد هذا الهيكل (من الأعمدة والجسور والسقوف) الذي يمتد من الأساس حتى السقف والمبني من الكونكريت ومن الكونكريت المسلح، لما كان بالإمكان وضع أي شيء أو أي أثاث في البناء. وأنا أشكل منظومة مشابهة وضرورية لتشكيل أماكن مريحة وملاجئ آمنة لعينيك ودماغك وقلبك وكليتيك ورئتيك ومعدتك وأمعائك تيسر عمل هذه الأعضاء وتربطها بأربطة مختلفة تحول دون تضررها وانسحاقها.

وبنيتي على العكس من بنية الأنظمة والأعضاء الأخرى، بنية بسيطة وغير معقدة وهي عبارة عن تجمع العظام والغضاريف والأنسجة الرابطة معا بشكل وترتيب منظمين. ولكن هذا لا يعني أن بنيتي خالية من الفن والجمال والإعجاز. على العكس من ذلك فشكل وبنية وخواص كل عظمة من عظامي قد صممت بشكل رائع. وجميع الأعضاء الأخرى -باستثنائي أنا- متكونة من أنسجة حساسة وناعمة وجميلة وسهلة التضرر، فكما أُعطيت لي مهمة حفظ مراكز الحواس في الدماغ -التي لا تملك مقاومة ضد الضربات والصدمات والجفاف والحرارة- كذلك أعطيت لي منظومة المفاصل التي تيسر لرجليك المشي بيسر على الأرض وليديك ولذراعيك القيام بجميع الأعمال التي تحتاج إليها أنت.

ومع أن عدد العظام في جسدك يبلغ ٢١٧ عظمة إلا أن التحام بعض هذه العظام في منطقة الورك والرِدف والعصعص وتكوينها بنية قوية يقلل هذا العدد إلى ٢٠٦ من العظام، منها ٢٢ في القحف، و٣٢ في العمود الفقري و٢٤ في الأضلاع و٦٤ في اليد والذراع وعظم الكتف و٦٦ في القدم والرجل والورك. ثم هناك ست عظام صغيرة في الأذن، فإذا أضيفت عظمة واحدة في الصدر وعظمة في منبت اللسان يصبح العدد ٢١٧ عظمة.



الهندسة الربانية الرائعة

وقد ألف هذا العدد الكبير من العظام فيما بينها نظاما رائعا يذهل الإنسان عند تأمله، فقد خُلقتْ كل عظمة من هذه العظام بشكل خاص حسب موقعها وحسب الأوصاف التي تملكها. فالعظام التي تقوم بحفظ وصيانة الدماغ مسطحة الشكل، أما عظام الذراع والرجل فأسطوانية الشكل وطويلة، وعظام الرسغ كروية، والعظم الكتفي وعظام الورك كبيرة ومتكونة من أجزاء كبيرة. ولكي ترتبط العضلات بعظامي جُعلتْ هناك نتوءات مناسبة فوق سطح هذه العظام.

ومن الممكن حساب الثقل وقوة البرم وقوة الضغط التي تستطيع كل عظمة تحملها. وقد درس العديد من المهندسين العاملين في علم الحياة أشكال هذه العظام فلاحظوا أنها خلقت في أفضل شكل حسب مواقعها وحسب الوظائف التي تقوم بها، واستفادوا منها عند صنع بعض النماذج المستعملة في التكنولوجيا. وكما تَعرف يجب على المهندسين الذين يقومون بتصميم وبناء الجسور أن يكونوا دقيقين جدا في حساباتهم، إذ يجب عليهم استعمال مواد معينة في المناطق التي تتعرض للضغط، ومواد أخرى في المناطق التي تتعرض للشد. فإن لم يقم المهندس بأخذ هذا بنظر الاعتبار، و لم يقم بالحسابات الضرورية انهدم الجسر بكل سهولة. ثم هناك أيضا ناحية الإسراف في استعمال المواد، فقد تعمل أو تبني شيئا متينا ولكنه يكون ثقيلا ومُكْلفا. وأحيانا تستعمل مواد ولكنك لا تستعملها في الموضع الصحيح فتذهب جهودك سدى. ولكن الله ﷻ خلقني بشكل دقيق وحساس بحيث لا تستطيع العثور في أي عظمة من عظامي على خطأ واحد، فلا مادة زائدة أو ناقصة فيها. ولا يمكن تفسير هذا الأمر إلا بإرجاعه إلى خالقٍ ذي قدرة وعلم لانهائيين.

ولكي تستطيع القيام طوال حياتك بجميع الحركات من ركض أو نوم أو قفز أو حمل ثقل أو أي شكل من أشكال الرياضة أو بالكتابة أو بتناول الطعام وغيرها من مئات الحركات فقد خلق الله تعالى كل عظمة من عظامي وكل الأنسجة والعضلات الرابطة بشكل مناسب وملائم لأداء جميع هذه الحركات، لذا استعمَل مواد مختلفة في المتانة والتحمل والقوة. وتأتي مادة العظم في مقدمة هذه المواد.

وعظامي ليست كلها متشابهة؛ فمادة العظم المضغوط المتضام تؤلف أصلب أجزاء العظام كالموجودة في عظمة الفخذ وعظمة القصبة الصغرى وعظمة بطة الساق (الربلة). فهذه العظام صلبة، أما الأجزاء المفصلية الموجودة في نهايات العظام وكذلك الأجزاء الداخلية للعظام المسطحة فهي ذات بنية إسفنجية وتوجد فيها فراغات، لذا فهي أكثر ليونة.

وهناك مادة أخرى مستعملة وهي الغضاريف التي توجد في نهايات العظام وفوق سطوح المفاصل لمنع تآكلها، وكذلك لامتصاص الضغوط الواقعة على هيكلي العظمي لمنع انسحاق الأعصاب التي تمر من هذا الهيكل العظمي، فهذه الغضاريف تؤمّن لي مرونة جيدة وكاملة ومنظرا جميلا. وبفضل المرونة والخواص التي وهبها الخالق للغضاريف تتم الحيلولة دون تكسّر العظام بسهولة بسبب صلابتها وعدم مرونتها، وتعطي هذه الغضاريف مرونة في حركة العظام. ولو لم توجد الغضاريف في نهايات المفاصل لتآكلت سطوح العظام بسهولة ولكانت حركاتك حركات ميكانيكية وغير مرنة تماما مثل حركة الإنسان الآلي (الروبوت).

والمادة الثالثة المستعملة هي الأنسجة الرابطة والألياف، وهي متكونة من مادة بروتينية اسمها الكولاجين. وهذه الأنسجة الرابطة عبارة عن حبال متينة تربط بين الألياف والغضاريف والعظام ببعضها، وهي بأطوال وأسماك وخواص مختلفة. والألياف المصنوعة من بروتينات الكولاجين تستعمل أيضا كأرضية للعظام وللغضاريف. وهذه الألياف الموجودة بين خلايا أنسجة

الغضاريف والعظام وبين المواد الرابطة -التي تعمل عمل السمنت الرابط- تُكسب هذه الأنسجة متانة وقوة. ويتعين توزيع الألياف في عظامي حسب قوة الضغط الواقع واتجاهها؛ فمثلا نرى أن توزيع الألياف في منطقة المفصل الذي يربط بين عظمة الفخذ وعظمة الورك توزيع رائع وكامل ويتطلب حسابا وتخطيطا دقيقا.

المفاصل وحركاتها

ليست جميع مفاصلي متحركة بالدرجة نفسها، فمثلا تكون المفاصل بين عظام القحف التي تحفظ مراكز الحواس في الدماغ بشكل أسنان المنشار، وهي متداخلة بعضها في بعض بشكل قوي ومتين، لذا فهي مفاصل ثابتة لا تتحرك. وطبعا فالذي وهب هذه القوة والمتانة لعظام القحف هو الله تعالى الذي يعرف مدى حساسية دماغك وعينيك وأذنيك. ويعود السبب في وجود المفاصل في القحف إلى أن القحف ليس بشكل كبسولة عظمية، بل هناك في أماكن مناسبة تجاويف وقنوات صغيرة لمرور الشرايين الدموية، وتجاويف لاحتواء أعضاء الحواس، وكذلك هناك ثقب كبير لاتصال الحبل الشوكي بالدماغ. والآن لنتساءل أيمكن أن يظهر كل هذا النظام الدقيق عن طريق المصادفة؟

والمفاصل الموجودة بين فقرات العمود الفقري تملك قابلية أكثر على الحركة من المفاصل الموجودة بين عظام القحف، ولكن مفاصل الأصابع لها قابلية حركة أكثر من مفاصل الفقرات. وهكذا فكما أيسِّر لك الوقوف عموديا، كذلك أيسر لك جميع حركاتك من قعود وقيام وانحناء وتمدد على الفراش. وقد تم خلق مفاصل الذراع والرجل بشكل يسهل جميع الحركات. أما مفاصل اليد فرائعة! وليس من المبالغة القول بأنها وراء جميع المخترعات والاكتشافات والتكنولوجيا. فجميع الأجهزة والآلات والأدوات وجميع الآثار الفنية والكتابة والكتب.. إلخ، وكل ما يخطر على بالك قد خرجت من القوة إلى الفعل نتيجة قابلية الحركة الموجودة في اليد. ولو لم تكن هناك هذه القابلية الرائعة للحركة في مفاصل الأصابع لما وجدت العديد من الأفكار أي مجال لها في ساحة التطبيق العملي.

أما العضلات التي تقوم بتأمين وتسهيل جميع حركات العمود الفقري فهي في حاجة للارتباط بعظامي لكي تقوم بهذه المهمة. فإحدى نهايات العضلات تكون مرتبطة بشكل ثابت بإحدى العظام وتكون النهاية الأخرى مرتبطة بمفصل من المفاصل المجاورة لها فتسحبها فتتيسر لك الحركة إذ تخطو في مشيك أو تهز يدك.

الحاجة إلى الكالسيوم

وقابليتي في تجديد نفسي جيدة وإن لم تكن بدرجة قابلية الجلد في التجديد. فإن انكسرت عظمة من عظامي فيكفي أن يُربط القسم المكسور بشكل صحيح فيتم الالتحام، وذلك بقيام خلية التعظم أي الخلية البانية للعظم بانقسامات سريعة وبعملية التحام ذلك الجزء المكسور، وتمتص هذه الخلايا أملاحَ الكلسيوم فترجع العظام صلبة كالسابق مرة أخرى.

وأنا في حاجة إلى مقدار كبير من الكالسيوم حتى وأنت لا تزال جنينا في بطن أمك، وذلك من أجل النمو. فإن كانت أمك تتغذى جيدا بمنتجات الحليب وبالخضراوات وبالسمك فلن تشتكي من نقص الكالسيوم. وحتى لو لم تتغذ الأمهات جيدا بمادة الكالسيوم فإن الجنين في بطن الأم لن يشكو من قلة الكالسيوم، لأن الخالق الرحيم يأخذ مادة الكالسيوم من عظام الأم ومن أسنانها ويعطيها هذا الجنين البريء ليواجه حاجته إلى هذه المادة الضرورية لنمو هيكله العظمي. لأن الأم تملك الإرادة والإمكانية لإشباع نفسها، أما الجنين فهو عاجز، لذا فهو في حاجة ماسة إلى مادة الكالسيوم المأخوذة من أمه. وبعد الولادة يجب أن يتغذى جيدا بالأغذية المحتوية على مادة الكالسيوم وفيتامين D، وأن يتعرض للشمس أحيانا. لأنه يكون في حاجة ماسة إلى أملاح الكالسيوم وإلى فيتامين D الذي يحصل عليه بأفضل شكل من تعرضه لأشعة الشمس. لذا كان من الواجب عليك أن تهتم بي كثيرا ولاسيما في مرحلة طفولتك. فإن لم تأخذ هذه الأملاح والفيتامينات لا تنمو عظامك بشكل جيد، مما يؤدي إلى ظهور مشاكل في هيكلك العظمي.

تجويفات العظام

ولفراغ مخ العظام الموجود داخل العظام وظائف مهمة جدا، فلو كانت عظامي مملوءة بالمادة العظمية لزاد وزنك كثيرا ولما استطعت القيام بسهولة. ثم إن العظام المملوءة لا تكون أكثر متانة، فحسابات القوة والمقاومة أظهرت بأن الأنبوب الحديدي المملوء يكون أقل مقاومة من الأنبوب الحديدي المجوف، ويكون أكثر قابلية للانحناء. وتكون العظام المستديرة والطويلة مصممة على هذا الأساس، فهي تبدي مقاومة أكثر للقوى المسلطة عليها.

الوظائف المهمة لمخ العظام

ومن الوظائف المهمة جدا لمخ العظام هي قيامه بإنتاج الكريات الحمـــراء الضرورية التي لها وظائف مهمـــة في دمك. في مرحلة شبابك يكون لون هذا المخ أحمر، وعندما يتقدم بك العمر يتحول هذا اللون تدريجيا إلى اللون الأصفر، ويزداد الدهن فيه فلا يعود ينتج الكريات الحمراء. أما البنية الإســـفنجية الموجودة في العظام المســـطحة فإن مخ العظام فيها يبقى أحمر اللون ويستمر في إنتاج الكريات الحمراء طوال حياتك.

إن شـــكل عظامي ونسبة بعضها إلى بعض من ناحية الطول تتعلـــق بهيئتك وسمتك. وحتى لو نَمَوْتُ أنا حســـب الخصائص الوراثية الـــتي أخذتها من والديك فإن الأحمال التي أضطر لحملها والضربات التي أتعـــرض لها تؤثر كثيرا على نموي. فإن تعرضت في ســـن مبكرة وقبل أن يتم تصلـــب عظامي إلى أحمال ثقيلة لا يزداد طول عظامي لكي لا تتكســـر، وتســـرع عملية التصلب عندي، وهكـــذا تبقى ذراعك ورجلك وطولك قصيرا. أما عند ممارسة بعض أنواع الرياضة مثل رياضة كرة السلة وكرة الطائرة فيتـــم تنبيه عظامي لكي تطول. وبجانـــب تأثير الأملاح المعدنية وفيتامين D في عملية تصلب العظـــام يؤثر الهرمون الذي تفرزه الغدة جنب الدرقيـــة في هذه العملية. وفي مناطق التعظم -وهي المناطق الموجودة في نهايات العظام- تجري عمليات انقسام الخلايا العظمية وتضاف هذه الخلايا إلى العظام، وهكذا تطول العظام. ولكن عملية تطويل العظام تتوقف بعد انتهاء ســـنوات المراهقة. وبينما تتوقـــف هذه العمليات عند البنات في ســـن ١٨-١٩، تستمر هذه العمليات في الذكور إلى سن ٢١-٢٢. لذلك كان معدل طول الرجال أكثر من معدل طول النساء.

عندما جئتَ إلى الدنيا كانت كل عناصري من الغضاريف، لذا كنتُ لينا ومرنا جدا. ذلك لأن الله تعالى الرحيم بخلقه والبصير بكل شـــيء قدر هذا الأمر بكل حكمة لكي لا تتضرر أنت في أثناء الولادة ولا تتضرر أمك.

ولـــو تصلبتُ تماما قبل الولادة لـــكان من المحتمل أن تموت أمك المســـكينة أثناء الولادة، وتَكسّـــر العديد من الأماكن في جسمك. ولكن بفضل الغضاريف التي تملك قابلية مرونة وليونة كبيرة يقل احتمال تضرر الوليـــد وتضرر الوالدة إلى حد بعيد. وبمرور الوقـــت تخلي الغضاريف مكانها للخلايا العظمية. وبخزن أملاح الكالسيوم يزداد تصلبي وتعظمي. ولكن تبقى الغضاريف في سطوح المفاصل وفي نهايات أضلاع القفص الصدري.

عزيزي عبد الله..

الآن جاء دور سؤال قد ينهي بهجتك: هل تيسر لك حضور فتـــح قبر قديم؟ أحيانا لا تبقى أماكن كافية في ســـاحات المقابر فيقومون بفتح قبر قديم ليدفنوا أحد أقارب صاحب القبر القديم. ستلاحظ في هذه الحالة أن جميع أقسام جسد الميت -عدا عظامه- قد تحولت إلى تراب، وترى أن جمجمته وبعض الأقسام من عظامه قد بقيت دون أن تتفتت ودون أن تتحول إلى تراب. ولكن بعد مرور مدة أطـــول تتفتت العظام أيضا. ولكن بما أن هذه العملية تحصل بعد مدة طويلة من تحلل الأنســـجة الأخرى لذا نجد بقايا العظام فقط عند فتح قبر قـــديم. وفي القديم وعندما كان القرآن يتنـــزل كان بعض الذين لا يؤمنون بيوم الحشر يأخذ بيده عظمة ويقول: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(يس:٧٨)، والآية ترد عليه وتقول: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(يس:٧٩). وفي مواضع أخـــرى عديدة يرد ذكر إحياء العظام الرميمة في الآيات القرآنية عندما تتحدث عن بدء الخلق أو عن يوم الحشـــر. إذن فالله تعالى يوجه الأنظار إلى العظام، وربما كان يريد أن يقول -أو في الأقل هـــذا ما أتصوره-: "يا عبد الله! لقد خلقتُ عظامك ومفاصلك وجميع منظومة هيكلك العَظمي بشـــكل كامل ورائع، واتخذتُ جميع التدابير اللازمة لكي تحيا حياة سهلة ومريحة، وخلقتك حتى أدق تفاصيلك بشكل حساس وكامل. فهل اتخذتُ عند خلقك أنموذجا كان موجودا؟ وهل قمتُ بتطبيق خطة وضعها غيري؟! كلا! إذن فكما خلقتك في البدء بعلمي وبقدرتي اللانهائيتين من العدم، فأنا قادر أن أبعثك حيا بعد موتك".

هذا ما أفهمه يا عبـــد الله! هذا ما أفهمه من الكتاب المجيد لخالقنا والذي يوجه خطابه إليك وإلى الإنسانية جمعاء. إن مداركك -يا عبد الله- خُلقت أفضل مـــن مداركي أنا الهيكل العظمي.

إذن فعندما تمشي أو عندما تقوم بأي عمل فتذكّر على الدوام مدى روعة قِطَع وأجزاء عظامك الموجودة بين أعضائك. وأنا أعتقد وآمل أن مثل هذا التفكر والتأمل سيفتح أمامك آفاقا جديدة. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



المدينة الإسلامية
مرآة للحضارة الإنسانية

د. دوغان دمير *

الحضارة الإسـلامية حضارة خلُق وإبداع، حضارة بعث وإحياء.. حضارةٌ ساهم فيها المسلمون في إرساء فكرة التجريب والتحسين، فأصبحت إرثا مشتركا بين جميع الشعوب والأمم التي انضوت تحت سقفها، وشاركت في بنائها، وأسهمت في عطائها.

وقد شـكلت المدن لب هذه الحضارة وجوهرها. وتميزت في العصور الإسـلامية بتخطيطها وعمرانها اللذين مثّلا قيماً ومبادئ ومعايير مثالية. فالمخاطبات التي تدور بين الناس في الأحياء، والكلمات التي تتردد على الألسنة في الشوارع والمنازل، هي التي عكست هوية المدينة ورقيها الحضاري بوضوح. ولابد لأي مدينة في العالم أن تستمد تراثها الحضاري من البيئة التي تنتمي إليها. وتعتبر المدينة هي البطاقة الشـخصية للحضارات جميعا. فبها تسمو الحضارات وتحيا، وبسقوطها تنهار الأمم



وتندثر. وللمدينة دور أساسي في تفسير الوضع الحضاري للبلاد، وفي تحليل الحالة الدينية التي يمارسها أفراد تلك الحضارات.

ولقد اعتبرت المدينة المنورة أول مدينة حضارية للدولة الإسلامية بعد هجرة الرسول ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ إليها. وسرعان ما أصبحت مدينة أنموذجية متكاملة من حيث البناء في العالم الإسلامي. إن المدينة المنورة كانت مركزا متكاملا يضم سوقا تحيط به مرافق تجارية وسكنية، بالإضافة إلى مسجد يحتوي على مدرسة للتعليم والتربية (مدرسة الصفة)، وبالإضافة إلى الحجرة النبوية الشريفة التي تُدار منها الدولة، وإلى ميدان للاجتماعات الكبيرة، ومقابر تذكّر بالموت واليوم الآخر، وأسوار تحيط بالمدينة، وخنادق للحماية من الهجمات، وأراض زراعية وآبار مياه قريبة من المدينة.

الأسواق، ملتقى المادة والمعنى

ومع مرور العصور تطور مفهوم المدينة في العالم الإسلامي، وأصبحت الأبنية والمنشآت في كل مدينة إسلامية تقام حسب المناخ المناسب لها، إذ استطاعت هذه المنشآت أن تجمع بين الاحتياجات المادية والمعنوية في المجتمعات الإسلامية، حيث استخدمت طريقة التجمّع التخصصي والحرفي وفكرة الأسواق المغطاة مع توفير الفراغات المفتوحة تفاديا للمَلَل وتعبيرا عن نوعية التجمع التجاري. ولكن رغم هذا الزحف العمراني والتطور في هندسة البناء إلا أن الأسواق حافظت على طابعها القديم كما كانت عليه في عهد الرسول ﷺ.

ضمت الأسواق الضخمة تحت سقوفها مناطق وخانات تجارية متعددة، وأصبح لكل مهنة من المهن منطقة خاصة بها، ثم أسست في هذه المناطق النقابات والجمعيات الحرفية. فمن ثم تحولت الأسواق إلى مدارس تعليمية وحرفية، وتحلّت بثقافة غنية وساهمت في التطور الاجتماعي والثقافي. ثم إن الحرفيين وجدوا بذلك إمكانيات متوفرة لممارسة مهنهم ونشاطهم، إمكانيات أدت إلى الحيوية والإبداع في المدينة وإلى إنشاء الأبنية المختصة كل منها بمهنة مختلفة، وسمي كل سوق من هذه الأسواق باسم المهنة التي تمارَس فيه، كسوق النحاسين وسوق الصاغة وسوق العطارين ..إلخ.

ونتيجة التطور والتوسع في العالم الإسلامي نقلت إدارة الدولة من الحجرة النبوية الشريفة إلى القصر أو المجلس؛ فاستخدمت القصور على سبيل المثال، كمساكن خاصة للسلاطين ومراكز إدارية للدولة في آن واحد. ولكن رغم كل هذه التغيرات التي طرأت على الحياة الاجتماعية في القصر وخارجه، إلا أن السلاطين حرصوا كل الحرص على اتباع هدي النبي ﷺ والسير على نهجه الذي خطه للبشرية جمعاء.

المساجد، القلب النابض بالحياة

وتحولت المساجد والمدارس التي اعتبرت من أهم أبنية المدينة الإسلامية إلى كليات كبيرة مع التطور الاجتماعي، غير أنها ظلت محافظة على هيئتها التي أراد الله أن تكون عليها، كما كانت في عهد الرسول ﷺ. والجدير بالذكر أن الحضارة الإسلامية حددت الأشكال الرئيسية لملامح المدينة، وأبرزت المساجد وحددت نوعية الساحات التي تحيط بها ونوعية التعليم في المجتمع، مما شكل الأبعاد المادية سواء للمسجد أو المسكن أو الكلية الجامعة أو المدينة بشكل عام. فمن ثم أقيمت الجوامع الكبيرة وأنشئت المدارس والتكايا والمطابخ والمستشفيات بالقرب من الأسواق وألحقت كلها بكلية المسجد الجامع. وللمساجد في المدن الإسلامية مكانة رفيعة خاصة. إذ اعتبرت الشعار الأساسي في المجتمع الإسلامي، منها انبثقت العلوم وبها تثقفت الشعوب وتحت سقفها التقى الخواص بالعامة من رجال دولة وعلماء وشيوخ، وعقدت العلاقات الحميمة فيما بينهم، وتحت قببها وقف الناس في صف واحد تلبية لأوامر ربهم ﷻ. وهذا أدى بدوره إلى استمرارية الدولة وبقائها. ثم إن رجال الدولة ومعهم المصلّون وجدوا فرصة لزيارة المستشفيات ودور العجزة داخل الكلية. وبذلك ظلت أحوال الفقراء والأيتام والشيوخ تحت عناية خاصة متميزة.

الأذان، منظم ساعات العمل

ارتبط المسجد بكافة الأنشطة التعليمية والثقافية والصحية والتجارية، فتحقق بذلك التكامل الاجتماعي والديني بين أفراد المدينة. فإقامة المساجد قرب الأسواق، سهلت على التجار التواصل بالمساجد وتأدية الصلاة باستمرار، وذكّرتهم بالله ﷻ عبر فخامة البناء أو تصاميمه المتواضعة. وكانت الغاية من ذلك كله تنبيه التجار إلى احترام حقوق الآخرين وتذكيرهم بحساب يوم القيامة الذي لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها.

ومما يستحق الذكر أن الأذان هو الذي حدد أوقات الأعمال اليومية في المدينة الإسلامية، أي نُظمت الحياة حسب أوقات الصلاة. هذا الاهتمام بالشعائر الدينية، عمق لدى الناس شعور الأخوة والتكافل، حيث أعطى أصحاب الأعمال أجور العاملين عند انتهائهم من العمل مباشرة، أي قبل أن يجف عرقهم، وذلك اتباعا لحديث الرسول ﷺ. أما بالنسبة إلى ساعات العمل في القصر

العثمــاني فكانت بين الأذانين. فبعض الاجتماعات في الديوان الســلطاني لرجال الدولة -مثلاً- كانت تعقد في الســاعة الرابعة قبيل صلاة الفجــر. ويتغير موعد الاجتماع هذا، حسب المواسم والفصول، حيث تعقد بعــد صلاة الفجر أحيانا، وبعد صلاة الليل (التهجد) أحيانا أخرى، وتُمنح فترة الاستراحة عند أذان الفجر ثم يستمر الاجتماع دون انقطاع حتى قبيل صلاة الظهر بساعة. وخلال هذه الســاعة يذهب الكل إلى تناول طعــام الغداء ثم تؤدى صلاة الظهــر. بعد ذلك يعقد اجتماع باســم "ديوان العرض" أي "ديوان العصر"، حيث تُناقش فيه الشؤون اليومية التي سيقوم بها الصدر الأعظم ثم تُعرض القرارات على السلطان. وهنا يقوم الســلطان والصدر الأعظم بتأدية صلاة العصر معا، ثم يعقدان مجلس استشــارة يتبادلان فيه الآراء بالمســائل التي تخص الأمة الإســلامية، ويختم هذا المجلس بأذان المغرب. ومما يلفت النظر أن العطلة الرسمية الأسبوعية في الدولــة العثمانية، ســاعة واحــدة فقط، وتكون قبل صــلاة الجمعة، ومع رفــع الأذان تنتهي العطلة.

انعكاسات الجوهر الحضاري

وهكذا اعتبر المسجد الجامع عنصرا من العناصر المركزية والمحورية بالمدينة الإســلامية وقلبها النابض بالحياة. ولعل إنشاء المساجد والقصور بالأحجار والرخام، يدل على أن المساجد إيماء إلى الحياة الأبدية والقصور تعبير عن بقاء الدولة العثمانية، غير أن إقامة المســاكن سواء للفقراء أم للأغنياء كانت من الخشب، وذلك لدلالتها على حياة الدنيا الفانيــة. ولعلنا نرى اليوم في أوروبا آلاف القصــور الحجرية والرخامية التي أقامها الأثرياء والأغنياء، بينما قصور الأثرياء في المدن العثمانية ليست بهذه الكثرة، تأكيدا على رســوخ معنى الفناء والزوال إذ لا يخفــى أنه كان هناك المئات من الباشــاوات في العهد العثماني، فلو بنى كل واحد منهم قصرا لامتلأت المدن بالقصور، لكنها قليلة جداً في إسطنبول العاصمة وأشهرها قصر إبراهيم باشــا في حي السلطان أحمد.

ونضيــف إلى كل ما ذكرناه، الاســتراحات التي أقيمــت على طول محطات القوافل، حيث كانت بمثابة مدن إسلامية صغيرة، فيها المسجد والسوق والمستشفى ومباني الإدارة. وبفضل هذه المنشآت وجد المسافر نفسه في أجواء روحانية مفعمة بالطمأنينة والراحة، فخفف عنه بذلك بعض ما وجد من عناء ومشقة السفر والغربة.

المدن بين الحاضر والماضي

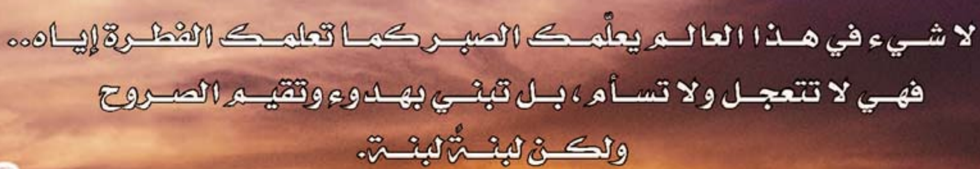
ولم تعد المدن الإســلامية في يومنا الحاضر كما كانت عليه قديما، إذ تغير فيها مفهوم العمارة وتفرقت المنشآت والمباني كالمســاجد والأسواق والقصور والمستشفيات وابتعــدت عن بعضهــا البعض. كل هــذه التقلبات أثرت ســلبيا على الأوضاع البيئية والحياة الاجتماعية والثقافيــة في المجتمعات الإســلامية. وفقدت المدينة الإســلامية بذلك طابعها المعمــاري والديني وهويتها الأصليــة، ولم تعد تعكس صــورة حضارتها العريقة.

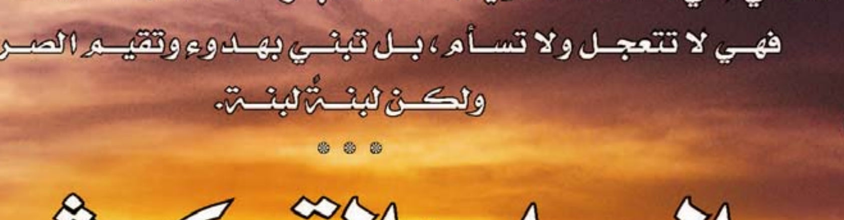
ولقد أصبحنا نلمح في أوروبا اليوم هذه المعالم التي كانت يوما من الأيام من سمات المدن الإسلامية، ففي مدينة أكسفورد مثلاً، نرى الكنيسة والمدرسة جنبا إلى جنب، وفي جوارهما الدوائر الحكومية والأسواق التجارية. ومما يلفت الانتباه أن ظهور هذا النظام الإسلامي بالمدن الأوروبية كان بعد الحــروب الصليبية، أي إن الأمم الأوروبية تبنت أسلوب ونظام المدينة الإسلامية وقامت بتطبيقهمــا في أرجاء بلادها بعد الحــروب الصليبية.

فنحن اليوم في أمس الحاجة إلى تغيير داخلي عميق، وتعديلات جذرية في فن العمارة الإسلامية، ودراسات هندسية جديدة في المرافق التربوية والتعليمية التي تلعب دورا أساســيا في توجيه المجتمعات الإسلامية. فمقولة "الإنسان ابن بيئته" تذكّرنا بوجوب العودة إلى جذورنا التاريخية وأصولنا الحضارية وتراثنا العلمي والإنســاني الرفيع، لنســتلهم منه ما يعيننا على إنشاء واقع أفضل لحياتنا كأمة.

إن المدينــة هي مرآة الحضــارات وهويتها، وإنها علامــة الازدهار والتطــور. وإحياء مفهــوم المدينة هذه، هو إحياء للقيم والمعايــير التخطيطية للمجتمع الإســلامي، إذ لابد من تأصيل القيم العمرانية التراثية في المدن المعاصرة، ومن إعادة تكوين القاعدة الأساسية للقيم المعنوية وتأصيلها في المجتمع عن طريق الخدمات الثقافية والتعليمية والاجتماعية والإدارية. ■

(*) أستاذ في التاريخ / تركيا. الترجمة عن التركية: نورالدين صواش.





الحوار والتكوثر
في حياة الرسول الكريم ﷺ



أ.د. حسن مكي*



الحوار كلمة قرآنية مباركة وردت مشتقاتها ١٣ مرة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾(الكهف:٣٧)، ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾(المجادلة:١).

والصحابة درجوا على محاورة الرسول ﷺ في قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية وطبيعية وتاريخية وعقائدية، كما ورد أنه لما جاء نعي النجاشي قال رسول الله ﷺ: "صلوا عليه"، قالوا: يارسول الله نصلي على عبد حبشي؟ فأنزل الله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(آل عمران:١٩٩) (رواه النسائي).

كان الرسول الكريم ﷺ يربي أصحابه بالحوار المتصل، والحوارُ ينشط العقل ويحرك الذهن ويحفز القابلية للتعلم ومتابعة الترقيات الروحية والفكرية. والعقلُ المحاور نقيض العقل المتعصب؛ فالعقل المحاور يترقي بصاحبه إلى أفق العلماء، بينما العقل المتعصب ينفي صاحبه عن زمرة العلماء.

وبما أنّ الرسول الكريم المثال في سماحة العقل المحاور والذهن المتوقد إلى درجة التكوثر، ومع أن التكوثر من مشتقات الكثرة، إلا أن الرسول الكريم اختص بالكوثر ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾(الكوثر:١). والكوثر هو الخير المتصل الكثير، وينبوعه العقل المتكوثر العارف بالله وفي خط نقيض عقل التكاثر ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾(التكاثر:١)، وعقل التكاثر يقوم على التسابق في تكثير الأموال والتباهي بمتاع الدنيا، فكل تكوثر تكاثر في طاعة الله وحبه ومعرفته،

ولكن ليس كل تكاثر تكوثرا، لأن مطلق التكاثر قد يكون متابعة حظوظ الدنيا، فســورة التكاثر موازية في الاتجاه والهدف لسورة الكوثر. فالعقل المتكوثر يدفـع صاحبه في اتجاه الصلاة والطاعة والفداء، بينما عقل التكاثر يتجه بصاحبه إلى الاستعلاء والمباهاة وخاتمته الغرور وسوء الخاتمة.

نماذج من حواراته ﷺ

كانت حياة الرسول الكريم ﷺ سلسلة من الحوار المتصل، مع ذاته ونفسه في غار حراء، ومع الملك جبريل عليه السلام بعد ذلك، ومع الملإ الأعلى، ومع زوجاته وبناته ومع أصحابه ومع المجتمع المعاكس وما به من أهل كتاب (يهود ونصارى) ومنافقين ومشركين ومع الحكام وقادة الجيوش.

واشــتهرت مواقف حوارية بعينها من حوارات الرســول المتصلــة، ومنها ما كان في بدء الدعوة، مرحلة الصدوع والجلوة بعــد الخلوة والكتمان، مرحلة ســعي المجتمع المعاكس في مكة لإجهاض مشــروع الدعوة، عن طريــق صفقة مع الداعية، لأن العقــل المكي الجاهلي المتكاثر، كان أســلوبُ حياته يقوم على التجــارة والصفقات والمبادلات وتقديم التنازلات في إطار العقل التكاثري. ولكن العقل التكاثري يصدم بالعقل التكوثري في حوار ما يزال يشكل العقل المسلم، ويعيد تشكيله ليتعلم أصول الحوار وما ينبغي أن يكون خاضعا للتفاوض والنقاش والتنازلات وما لا ينبغي أن يصبح عرضة للمتغيرات والمساومات والتنازلات. ولعل هذا الحوار وقع في الســنة الخامسة للبعثة النبوية، حينما اكتشف المجتمع الجاهلي أنه أصبح حاملا بمشــروع جديد، وأن الرحم المكي بدأ يتسع لهذا المشروع، ولذلك اجتهدوا في سبل إجهاض الحمل ووأد المشــروع، بصرف صاحب المشروع عن مشروعه وجره عن طريق اللجاج والمحاجة ليصبح شــريكا في إجهاض المشــروع، حيث اجتمع عليه من أشراف قريش، وجلس إليهم الرســول ﷺ فقالوا: يا محمد قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك. لقد شــتمت الآباء وعبت الدين، وســفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، وما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت تطلب الشــرف فينا سوّدناك علينا وإن كنــت تريد ملكا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا (أي جانا) تراه قد غلب عليك، بذلنا أموالنا في طلب الطب، حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

وكان هــذا الكلام كافيا لأن يخرجــه ﷺ من طوره، ولكن الرسول ﷺ -الذي فطر على السماحة وقبول الآخر والصبر على الآخر، حتى يكسبه ولو بعد حين- أجاب: "ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، والشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم".

وتوالت المحاولات والوساطات، والضغوط حتى استعانوا عليه بعمه أبي طالب حاميه وناصره، فقال قولته المشهورة: "يا عم، والله لو وضعوا الشــمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته". ومع أنه لم يهجهم أو يتهجم عليهم أو يرمهم بما رموا به، وإنما لزم أدب الحوار من جانبه، ولكن مع ذلك لم يقدم أي تنازل في أمر الدعوة، واتسمت لهجته هذه المرة بالصرامة، لأنهم أرادوا الضغط لا الحوار، بإدخال عمه وجعله أداة ضغط، واســتخدام الوسائل العاطفية والنفسية، فأراد أن يدفعهم عن ذلك، كما أراد أن يوجه رســالة قوية لعمه والمجتمع الجاهلي أن لا يخلطوا الأمور حتى لا يختلط الأمر وتضيع الحقيقــة حينما يصبح الحوار مطية للابتزاز وممارســة الضغوط، حتى طار صواب أشراف قريش، بينما ظل هو مستجمعا لكيانه وقدراتــه، قادرا على إلحاق الهزيمة بهــم. وأصعبُ الهزائم الهزيمة العقلية والفكرية التي أداتها الحجة. فبينما كان يخاطب العقل (أي عقولهم) كانوا هم مشــغولين بنتائج عمله على الأرض قائلين: فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب.

والفــارق بين منهج الرســول الكريم ومنهــج خصومه من أشــراف مكة أنهم ينطلقون من مصالح دنيوية وعقائد جاهلية، بينما هو ينطلق من "أدبني ربي فأحســن تأديبي" (رواه العسكري في الأمثال) أو كما ورد في أدب الخطــاب في القرآن الكريم: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٤)، استشــعار أن الآخر المخاصم هو ولي حميــم، لا يكون إلا من صاحب خلق عظيم، وصاحب رســالة ارتكز في عقله ووجدانه أن الدعاء إلى الدين أعظم الطاعات وأجل الواجبات. ولا تســتوي الأعمال الحسنة -ومن بينها أدب الحوار- ولا الأعمال القبيحة التي منها التعصب والجهل والغلظة. لذا المطلوب دفع الباطل بالحق، والجهل بالحلم والأســاءة بالعفو. لذا من صفات المتدين كظم الغيظ واحتمال

المكروه ومد حبال الصبر للآخر المحاور مهما خرج على قواعد الحـــوار، حيث المتدين لا ينتهي إلى تصفية الحســـابات بالثأر أو الإساءة أو تحقيق انتصارات لإشفاء غريزة الغلبة، إذ المتدين ينبغي أن يكون صاحب النصيب الوافر من الرأي والعقل.

منهاج النبــي الحواري

ويمكن استنباط منهج النبي الكريم ﷺ في الحوار من مقارنة موقفه الصلــب في بداية الدعوة وعدم تقديم تنازلات عقدية مع التزامه بأدب الحوار والصبر والعفو والحلم، بموقفه في غزوه الحديبية بعد مرور أثني عشر عاما على موقفه الحواري مع كفار مكة وأشرافها، حيــث أصبح في موضع قوة وأصبح الزعيمَ على المجتمع والأميرَ والـــوالي، ولم يك في حاجة لتقديم تنازلات، ولكنه قدم تنازلات ليس في صميم الدعوة أو بمجمل الإطار الروحي، ولكن في قضايا تتصل بالظروف والأوضاع وشؤون الحرب والسلم وإدارة المنطقة وأداء المناسك. وكان ذلك في غزوة الحديبية في السنة السابعة من الهجرة، حينما قصد أداء العمرة وأصبح هناك توازن عســكري بين دولة المدينـــة ودولة مكة، وتوترت المفاوضات واكفهر الجو ليصبح جو حرب. وكفار مكـــة يمنعون النبي من دخول الحرم، والنـــبي الكريم لا يريد فرض منطق القـــوة رغم ضغط الصحابة عليه، ويريد الوصول لأهدافه المصيرية والمرحلية بالحوار والحكمة.

وبرزت حكمة الرســـول الكريم في توظيفه للأسماء والمعاني كأدعية للحوار والفأل الحســـن وكســـب القلوب، فحينما بلغه اســـتئذان رجل من قبيلة كنانة كوسيط، استمال الرسول الرجل قائـــلا لأصحابه: "هذا فـــلان، وهو من قـــوم يعظمون البدن فابعثوها"، فبعثت له واستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. وهكذا يؤسس الرسول الكريم لفتة كسب قلوب الآخرين.

ولكـــنْ أبرز الكتابُ أو وثيقة العهد مرونة الرســـول الكريم واستعداده للتنازلات المرحلية والعرضية، والتي إن بدت كتنازلات إلا أنها في الحقيقة فتحت الآفاق أمام حركة الدعوة الإســـلامية المحاصَـــرة، حيث جلبت الوثيقةُ الســـلام وأطلقت يد الجماعة المســـلمة في حقل الدعوة باستثناء الحقل المكي. كما أن المعاهدة اعترفـــت لأول مرة بالكيان الجديد ككيان له حق الحياة والعيش المشـــترك وحرية الدعوة. ولذلك كان الرسول الكريم ﷺ مرنا، ورفض أن يكون حرفيا أو أن يلزم خصومه بما يلزم به أصحابه، فلذلك دعا الرسول الكريم ﷺ علي بن أبي طالب وقال له: "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم. وهنا قال المســـلمون والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي ﷺ: "اكتب باسمك اللهم". والمعنى الجوهري واحد وهو التمجيد لله ﷻ والإشـــهار أن الله شاهد وحاضر في المعاهدة. ولذلك تجاوز الرسول الكريم الاعتبارات الحرفية واللفظية والدلالات الحصرية إلى ما يجمع وبقوة.

ثم جاء التنازل الثاني والذي كان قاســـيا على الصف المسلم، حتى رفض تلميذ الرســـول وابنه النجيـــب علي كرم الله وجهه الامتثال، وذلك حينما رفض ســـهيل جملةَ "هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله" فقال ســـهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك ولا قاتلناك، ولكن أكتب محمد بن عبد الله. والرسول المحاور المنطقي مع نفســـه وأصحابه وجد أن كلام خصمه عين المنطق، لذلك كان رده ســـريعا وحاسما قائلا: "إني لرســـول الله وإن كذبتمـــوني"، ثم قال لعلي كرم الله وجهه: "أمح رســـول الله"، فقال علي: يارســـول الله إن يـــدي لا تنطلق بمحو اسمك. وهذا غاية الولاء والأدب والحب، بمعنى أن هيبة الرســـول الكريم تغلغـــت ذات علـــيٍّ وكيانه حتى ما عاد قـــادرا إلا على الدعاء للرســـول والصلاة عليه وأن أعضاءه تتمرد عليه فيما طلب منه، مما دعا الرســـول الكريم للتدخل ليأخذ الوثيقة ويمحو المطلوب.

وبذلـــك وبهـــذه الثقـــة والســـعة دخـــلا (أي الرســـول الكريم والوســـيط ســـهيل) علـــى القضايا الجوهريـــة وأهمها:

أولا: اصطلحا على وضع الحرب عشـــر ســـنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض... ثانيا: وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمـــد حاجا أو معتمرا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله... ثالثا: ومن قدم المدينة من قريش مجتازا إلى مصر أو إلى الشام فهو آمن على دمه وماله وأنّ بيننا عيبة مكفولة وأنه لا إســـلال ولا أغلال... رابعا: وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيـــه، وأن من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه... خامســـا: وأن يعود محمد وأصحابه ليطوفـــوا في البيت العام المقبل لقيمـــوا به ثلاثا... ثم ختم العهد باســـتدراك من سهيل أصبح الشرط الأقسى في المعاهد: سادسا: فقال سهيل: على أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ومن جاءنا ممن معك لم نرده.

وكاد هذا الشرط الذي قبِله الرسول أن يوقع فتنة في الصف المسلم، فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مســـلما، فقال ﷺ: "من جاءهم منا فأبعده الله، ومن جاءنا

منهم رددناه إليهم، فلو علم الله الإسلام من قلبه جعل له مخرجا".

وكادت أن تقع الفتنة في مراسم التوقيع حينما جاء أبوجندل يرسف في أغلاله، ورمى بنفسه بين أظهر المسلمين. وحاور الرسول أشراف مكة في شأنه وحينما رفض المشركون وكادت أن تقع الحرب وينقض العهد رده إليهم حتى يتم العهد قائلا: "اصبر أبا جندل سيجعل الله لك مخرجا". وكان المخرج حينما فر من قيده واتجه إلى جهة الساحل وانضم إليه الناقمون والمتمردون وهددوا جبهة قريش، فطالبت قريش النبي ﷺ أن يضمهم إلى صفه ويعطيهم الأمن والملاذ حتى لا تحاصر قريش وتضيع مصالحها وتجارتها.

بينما كان العقل المتكوثر للرسول الكريم بقدرته على الاستشعار واستكناه المستقبل مرتاحا للحوار وثمرة الحوار مع مشركي مكة المتمثلة في المعاهدة، وأن هذا الحوار بما فيه من ندّية وبما حقق من سلام فتح أبواب التاريخ للحركة الإسلامية، كان بقيةُ الصف المسلم يحس نتيجة للحسابات الوقتية وحسابات الربح والخسارة الآنية أنهم أعطوا الدنية في دينهم ورضوا بالثمن البخس، إلا أنه نزل الوحي منتصرا لحسابات المنطق والعقل المتكوثر على حسابات لذة الانتصار للحظة الحاضرة، وجاء الرد الإلهي حاسما: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾(الفتح:١).

ولقد كان حوار الحديبية وما أفضي إليه من نتائج فتحا بشهادة التاريخ، وفتحا بشهادة وقائع فتح مكة بعد أقل من ثلاث سنوات. وصيحة ذلك اليوم: "من دخل داره فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن". مثّل حوار الحديبية انتصارا للمصيري والنهائي، على حسابات العقل الجزئي القائم على إشباع غرور الانتصار للحظة العابرة، بدلا من الحسابات القائمة على ترابط القيم والأخلاق والمبادئ التي تشق طريقها حتى في الصخر والصعوبات البالغة، لتحقق الأمن والسلام والحرية للدعوة، في إطار العيش الواحد المشترك بخصوصياته ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:٦). وذهب حوار الحديبية في التاريخ مثلا على سعة العقل المتكوثر واختراقه للحجب وسماحته وعدم ضيقه بالآخر.

ونسأل أين ذهب التكوثر وسط مسلمي اليوم؟ ولماذا بعضهم يضيق بالحوار وقد رضي العقل المتكوثر بالحوار، حتى وإن انتهى به إلى أضيق الطريق، لأن أضيق الطريق سيتسع بالحوار، ويصبح أصل الطريق وكل الطريق.

ومن بركات الحوار مع أهل مكة ومشركيها ابتداء من حوار المقدمات بصموده وقطعياتها: "والله يا عم لو وضعوا الشمس.. إلخ"، وانتهاء بحوار الخواتيم مع ذات النفر من أهل مكة، والذين قبلوا بمحمد القائد والزعيم وأمهلهم بحواره الرائع السمح في الحديبية ليقبلوا بمحمد الرسول الكريم ﷺ، انفتحت أبواب التاريخ أمام الدعوة الإسلامية، فكان عام الوفود. ومثّل عام الوفود تحولا نوعيا في حركة الدعوة الإسلامية، حيث أخذ الخُطّاب يأتون طواعية لخطب العروس "الدعوة الإسلامية"، وأصبحت حركة الدعوة الإسلامية تتحرك ذاتيا. كما بدأ الرسول الكريم ﷺ في محاورة رؤساء الحكومات والملوك، حسب رسائله المختصرة التي لها وقعها، والتي مثلت مدرسة في الدبلوماسية، لأنها كانت قوية ومعبرة "أسلِم تسلَم" للطغاة والجبابرة الذين لا يصلح معهم إلا مثل هذا الخطاب الذي لم يألفوه و لم يعرفوه، خصوصا وقد صنفوا أنفسهم آلهة تسجد لهم الخليقة وأصبحوا يستحلون لأنفسهم الحرمات والدماء والأنفس، إلى أن وصلتهم صيغة: "أسلِم تسلَم". وهي مقدمة لكتاب الإسلام الكبير وما فيه من أركان وواجبات وفرائض وآداب وتحالفات وعهود وحروب وتعايش وتواصل.

مع وفد نجران

ومن ضمن ما وصل إلى المدينة وفد نجران من النصارى الذين وفدوا ليعارضوا ويحاجوا في أمر عيسى بن مريم عليه السلام في السنة العاشرة من الهجرة، وسمح لهم الرسول الكريم بضرب الناقوس والصلاة في المسجد النبوي حسب الرواية "إن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله ﷺ فأقبلوا يضربون الناقوس وصلّوا، فقال أصحاب رسول الله: يا رسول الله هذا في مسجدك؟ فقال: "دعوهم"، فلما فرغوا دنوا من رسول الله، فقالو: إلى ما تدعو؟ فقال: "إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأن عيسى عبد مخلوق، يأكل ويشرب ويحدث". قالوا: فمن أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله ﷺ فقال: "قل لهم: ما تقولون في آدم، أكان عبدا مخلوقا يأكل ويشرب ويحدث وينكح؟" فسألهم النبي فقالوا: نعم، قال: "فمن أبوه". فبهتوا فأنزل الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾(آل عمران:٥٩).

ولعل وقوع هذا الحوار في السنة العاشرة من الهجرة، جعل الرسول الكريم يصارح النصارى بالرؤية الإسلامية في مسألة المسيح ونفي ألوهيته مع التزام آداب الحوار، علما أنّ فَرَضية ألوهية المسيح لم تغب أصلا عن أجندة الحوار المسيحي إلى يومنا هذا.

بين جعفر والنجاشي

واستمد صحابة الرسول ﷺ من فيضه ومدده القدرة على الحوار، كما برز في حوار جعفر بن أبي طالب مع عمرو بن العاص في

حضرة النجاشي حيث كان مدخل جعفر لطيفا و لم يبدأ لا بسب عمرو بن العاص ولا بسبب عقيدة النصارى، وإنما ركز خطابه على الدفاع عن المسلمين في حضرة النجاشي. وحتى حينما حاول عمرو بن العاص أن يوقع بينهم وبين النجاشي لأنهم لم يسجدوا له كما يفعل الآخرون قال له جعفر وبأدب: "إنك ملك من ملوك الأرض من أهل الكتاب، ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم".

وهذه كلمة جامعة، أوفت النجاشي حقه، فاعترفت بقوامته كملك، وأنه بالإضافة إلى ذلك من أهل الكتاب وهو المشترك بينهم، لأنهم كذلك أهل كتاب، وأن مجالسه لا يصلح فيها كثرة الكلام، كناية عن جدية هذه المجالس، وأن بركة الكلام فيها في قلته حتى تتسع للطلب المتسع عليه من الناس. كما لا يصلح فيها الظلم وهي رسالة لطيفة للنجاشي ولعمرو بن العاص بأن المجالس أمانات ولا يصلح فيها إلا العدل، وبذلك نجح في خلق جو حواري أزال منه أسباب العداء وجعله صالحا للحوار الحر.

ثم أردف قائلا: أولا إنهم أحرار لم يريقوا دما، ونجح في تأمين شهادة خصمهم عمرو بن العاص في ذلك. ثانيا لم يأخذوا أموالا بغير حق، فهم ليسوا لصوصا أو قطاع طرق. ثالثا إن خلافهم مع وافد قريش أن قريشا كانت على دين الشيطان، تكفر بالله وتعبد الحجارة، (أي إنهم ليسوا أهل كتاب وأنهم في الخندق المعاكس، لخندق أهل الكتاب الذي يضم النجاشي). رابعا إنهم أصبحوا على دين الإسلام، لأن كتابه مثل كتاب ابن مريم موافق له، وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويأمر بحسن الجوار وصلة الرحم وبر اليتيم.

وحينما حاول عمرو بن العاص محاصرته برؤية الإسلام للمسيح وإيقاع فتنة بينه وبين النجاشي. في ذلك تلا جعفر ما تيسر من سورة مريم على النجاشي، وهذا من الفطنة وحسن الاختيار، إذ فيه تأكيد للمشترك بينهم، وأن المسلمين يُجلّون المسيح ويجلون والدته ويربطون بين السلام والمسيح: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾(مريم:٣٣)، مما أقنع النجاشي بأن ما يقوله محمد ﷺ إنما يصدر من ذات ناموس موسى وعيسى عليهما السلام. وكان جعفر منتبها إلى أن هدف الحوار ليس تفضيل الإسلام على المسيحية، ولا دعوة النجاشي إلى الإسلام، وإنما إفساد أمر عمرو بن العاص وإفساد خطته للوقيعة بين النجاشي والمسلمين وحماية المسلمين وتقوية تحالفهم مع النجاشي ولكل مقام مقال، وحسب الهدف تتحدد طبيعة الحوار.

بين الطائف وعداس

توافق مع حوار الحبشة حوار آخر جرى في الطائف، وإن كان أصحاب النبي ﷺ بقيادة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عبروا البحر واتخذوا من حبشة (شرق إفريقيا) أرض ملجأ وملاذ، فالنبي ﷺ كان على ذات الخطة، يبحث عن الملجأ والملاذ. فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن نالته منه في حياة عمه أبي طالب. فخرج الرسول ﷺ إلى الطائف يلتمس عند أهلها النصرة والمنعة. فجلس إلى بعض سادتهم، فدعاهم إلى الله وكلمهم لِما جاءهم له، من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه.

ولكن لمّا يصلْ حديثه إلى عقولهم، فقام مِن عندهم يائسا من خير فيهم، حيث رفضوا أن يلتزموا بأن يكتموا ما وقع بينه وبينهم، وأغروا به سفاءهم، وكان هنا دعاؤه المشهور والدم يسيل منه والذي ورد فيه: "إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي"، حتى تقاطعت طرفه مع غلام نصراني يقال له عداس، جاءه بقطف من العنب، فلما وضع الرسول ﷺ يده فيه قال: "بسم الله"، ثم أكل، ثم نظر عداس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: "ومن أهل أي بلاد أنت يا عداس وما دينك؟" قال: نصراني وأنا رجل من أهل نينوى. فقال رسول الله ﷺ: "من قرية الرجل الصالح يونس بن متى". فقال له عداس: وما يدريك بيونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: "ذلك أخي،كان نبيا وأنا نبي، فأكبّ عداس على رسول الله ﷺ يقبّل رأسه ويديه وقدميه".

والشاهد استعداد الرسول للحوار، حتى وهو مغلوب على أمره والدم يسيل منه، لا يخرج من طوره ويتخير الألفاظ ويكسب العباد، فإن كان أصحابه في الحبشة كسبوا رئيس النصارى وملك القوم النجاشي، فإنه هنا يكسب عبدا غلاما مغلوبا على أمره بالحوار ويخرج من الطائف وقد كسب صديقا وعضوا للصف المسلم، حينما أبرز له شيئا من علمه وسعته. فالحوار يتصل مع الأشراف والسادة والملوك والعبيد والمهمشين، لأنهم أمام الله سواء، وكذلك هم إخوة في الإنسانية، وكلهم يستحق الخلاص والوصل بالكلمة الطيبة "لا إله إلا الله".

حواره مع اليهود

وبمثل ما حاور الرسول الكريم ﷺ النصارى حاور اليهود، فحينما أتاه أحبار اليهود فقالوا: يا محمد بَلَغنا عنك أنك



تقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسراء:٨٥)، أفتعنينا أم قومك؟ فقال: "كُلاًّ قد عنيت"، قالوا: ألست تتلو فيما جاءك أنّا قد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: "هي في علم الله سبحانه قليل، ولقد آتاكم الله تعالى ما إن عملتم به انتفعتم به". قالوا يا محمد كيف تزعم هذا، أنت تقول: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(البقرة:٢٦٩)، فكيف يجتمع علم قليل وخير كثير؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ﴾(لقمان:٢٧).

وللأسف الشديد، فقد غابت صورة الرسول الكريم المحاور، صورة الرسول ذي الخلق العظيم... صورة الرسول الذي يحتمل الأذى ويصبر على المكروه... صورة الرسول الذي يحب العلم والإحسان وتجويد العمل... غابت عن المجتمع صورة الرسول الكريم الذي يألف ويؤلف... صورة الرسول الذي وضع شرائع قبول الآخر، صورة الرسول الذي مدحه الله ﷺ باللطف والتهذيب ونفى عنه نقيض ذلك، ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(آل عمران:١٥٩)، أي لو كنت جافا في المعاملة والقول لا شفقة عندك لتفرقوا ونفروا. إذن من أين جاءت الصورة النمطية المصفوفة في بعض الأذهان والتي لا تتفق مع شخصية الرسول الكريم ﷺ.

ولا أدل على غياب صورة الرسول من مجتمعنا. من أن المجتمع لا يكاد يعكس هذه الصورة، ولا يكاد يتأسى بها وإن الأداء بعيد عن الرجاء وبعيد عن القدوة في النظافة والالتزام واللطف والأدب والجدية والقوة والرحمة... ومع انتشار وسائل الاتصال والتواصل والمساجد، فإن الفرصة متاحة لبسط صورة الرسول الرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧). ■

(*) مدير مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية / السودان.

المصادر

(١) أسباب النزول، للسيوطي، دار الرشيد، دمشق، بيروت، ص:١١٧.
(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، ، دار الفكر العربي.
(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ أبي على الفضل بن الحسن الطبرسي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.
(٤) الميزان في تفسير القرآن، للسيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٣٤٢ هـ.
(٥) أسباب النزول، لأبي الحسن النيسابوري، مؤسسة الريان، بيروت، ٢٠٠٥م.

العمل الخيري: مفهومه وموقعه من مقاصد الشريعة



أ.د. إبراهيم البيومي غانم*

مفهوم "الخير" معروف في أغلب الحضارات الإنسانية، و"عمل الخير" مألوف في معظم تجارب الشعوب والأمم، القديم منها والحديث.

ويكاد الخير أن يكون قاسما مشتركا بين جميع بني آدم على مر العصور والأزمان، كما أن الشر قاسم آخر مشترك بينهم، والسعيد منهم من هداه الله لفعل الخيرات والتسابق فيها. وللخير وعمله مقاصدُ تختلف في تفاصيلها بحسب كل حضارة، ولكنها تتفق في كلياتها بين جميع الحضارات حيث "الإنسان" هو مَنْ تُنتظر منه المبادرة بعمل الخير، وهو أول مَنْ يستفيد من عمل الخير معنويا أو ماديا أو معنويا وماديا في آن واحد.

أين يقع "الخير" و"العمل الخيري" من مقاصد الشريعة؟ إن الخير مقصد عام وثابت من المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، وله مقاصد أخرى تهدف كلها لمنفعة الإنسان في كل زمان ومكان. علينا قبل الإجابة أن نعرف أن مفهوم "الخير" متجذر في اللغة العربية، وهو ذو مقاصد متنوعة بعضها يخدم مقاصد عامة وثابتة، وبعضها يسهم في تحقيق مقاصد فرعية ومتغيرة.

الخير في اللغة

تشير كلمة "الخير" في اللغة العربية إلى كل ما فيه نفع وصلاح، أو ما كان أداة لتحقيق منفعة أو جلب مصلحة[1] كالمال، والمالُ الوفير

يقال له خير. قال حكيمٌ يعظُ ابنه: "لا خير فيمن لا يجمع المال ليصون به عرضه، ويحميَ به مروءته، ويصل به رحمه". وينظر الأصفهاني إلى الخير نظرة فلسفية، ففي "المفردات في غريب القرآن" يقول: "إن الخير ما يرغب فيه كل البشر كالعقل والعدل والنفع والفضل، وضده الشر".(٢) وقال آخرون إن الخير هو "العمل الذي يعم نفعه". وكثيرون من فلاسفة الإسلام وحكمائه أقاموا ضربا من التوحيد بين "الخيرية" والإبداع؛ فكلما كان الإنسان خيرا، ومحبا للخير، كان أقدر على الإبداع والابتكار والتجديد وإفادة البشرية وإعمار الأرض. يقول ابن سينا: "إن الخير هو ما يتشوقه كل شيء ويتم به وجوده".(٣)

ويرتبط الخير في لغة العرب بحسن الاختيار، وتعددِ البدائل التي يمكن الاختيار من بينها. ويشير أبو هلال العسكري إلى الفرق بين الخير والمنفعة فيقول: "إن كل خير نافع، ولكن ليس كل نفع خيرا". واستشهد بقوله تعالى عن الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾(البقرة:٢١٩).

فلا تكون المعصية خيرا وإن جلبت نفعا. ويقول أبو هلال أيضا: "إن الإنسان يجوز أن يفعل بنفسه الخير، كما يجوز أن ينفع نفسه بالخير، ولا يجوز أن ينعم عليها؛ فالخير والنفع من هذا الوجه متساويان، والنفع هو إيجاب اللذة بفعلها، أو السبب إليها، ونقيضه الضر، وهو إيجاب الألم بفعله أو التسبب فيه".(٤)

ويربط كتّابُ الحكمةِ السياسية في التراث الإسلامي بين "الخير" ومكارم الأخلاق، والعدل، وعمارة البلدان، أي تنميتها وتطويرها. فابن هذيل مثلا يقول: "إن كل خصلة من خصال الخير، وخلة من خلال البر، وشيمة تعزى إلى مكارم الأخلاق، وسجية تضاف إلى محاسن الطبائع والأعراق؛ فهي واقعة على اسم الكرم.(٥) أما سبط ابن الجوزي فيربط الخير بعمارة البلدان، يقول: "إذا اتسع الرزق، كثرت الخيرات، وإذا كثرت الخيرات عمرت البلدان".(٦) وفي إطار المقارنة نجد أن كلمة "العمل الخيري" (Philanthropia) في اللغات الأوربية مشتقة من مصدرين في اللاتينية، الأول هو كلمة (Philein) وتعني "حب"، والثاني هو كلمة (Anthropon) وتعني الإنسان. ومعنى الكلمتين معا هو "حب الإنسان". وتكون كلمة خير بمعنى "الطيبة" (Kindness)، أي إن الخيرية هي صفة لمن يشعر بآلام الآخرين، ويرغب في تحقيق سعادتهم، أو في دفع الأذى عنهم".(٧) ويختلف فهم العمل الخيري في تجارب المجتمعات الغربية بتباين الخلفيات التاريخية والأعراف الخاصة بكل دولة، أو بكل مجموعة من الدول. ففي إنجلترا مثلا يستخدم مصطلح الإحسان (Charity) كمرادف لمصطلح العمل الخيري (Philanthropy)، وقد استمر المصطلح الأخير مرتبطا بتصورات العصر الفيكتوري عن سخاءِ وعطف الطبقات العليا في المجتمع على الطبقات الدنيا. أما في الولايات المتحدة فهناك تمييز بين المفهومين، إذ يشير الإحسان إلى المنح والعطاء المتوجه لمعالجة نتائج مشكلة أو قضية ما، في حين أن العمل الخيري يوجه موارده لمعالجة أسباب المشكلة من جذورها والوقاية منها وتفادي وقوعها.

فلسفة الخير ومقاصده

ينبع مفهوم "الخير" من أصول الرؤية الإسلامية للعالم. وتشكل النزعة الخيرية ركنا من أركان بناء الوعي الإسلامي للذات الإنسانية، وتوفر أساسا من أسس تكوين الذات الفردية والجماعية في الخبرة الحضارية الإسلامية. فالخير مقصد عام وثابت للشريعة، وله مقاصد أخرى على نحو ما سيأتي بيانه. وتتضمن الأصول الإسلامية (القرآن والسنة) نظرية متكاملة للخير وتطبيقاته وأبعاده النفسية والاجتماعية والاقتصادية، الفردية والجماعية.(٨)

أما فلسفة الحضارة الغربية الحديثة فلا يوجد بها ما يحض على المبادرة بعمل الخير، ولم تظهر نزعة "عمل الخير" المجرد من المنفعة المادية لصاحبه في الأفكار الفلسفية الكبرى للحضارة الغربية. ففلاسفة الأنوار من أمثال هوبز، ولوك، وبنتام، وغيرهم، لم يتحدثوا عن مفهوم الخير العام في كتاباتهم، وكان جل تركيزهم على "النزعة الفردية" و"مصلحة الفرد". فكل شيء عندهم يقاس بحاجة الفرد ومصلحته المادية في المقام الأول والأخير. ويؤكد "مارسيل موس" في بحث له بعنوان (Essai Sur Le Don) (بحث في الهبة) أن حضارة الغرب لا تمتلك مفهوما مستقلا للعمل الخيري في ظل هيمنة الجانب الاقتصادي والفلسفة الرأسمالية على روحها. ولهذا لا يمكن فهم مؤسسات العمل التطوعي أو غير الهادف إلى الربح في البلدان الغربية (أوربا وأمريكا) بعيدا عن قوانين الضرائب، حتى إنهم يطلقون عليه اسم "القطاع المعفي من الضرائب"، في إشارة صريحة إلى أن "الإعفاء الضريبي" هو أهم

دافع للمبادرات الخيرية للصالح العام، باستثناء الأعمال الخيرية ذات الوازع الديني.

"الخير المشترك" أو "العام" في الفلسفة الغربية الحديثة هو منفعة تحدث للمجتمع ككل متكامل، أما خير الجميع فهو منفعة تحدث لكل أعضاء المجتمع منفردين. النظرية النفعية عند "بنثام" مثلا تقول إن خير كل فرد يقاس بمقدار المصلحة المتحققة لهذا الفرد، ولاختلاف الأفراد ستختلف مصالحهم. وحاول "عمانويل كانت" -دون جدوى- أن يَحُل هذه المعضلة بقوله "إن الخير العام هو الذي ينسب إلى الطبيعة البشرية ككل، وبالتالي فإن الخير الذي يستثني من المتمتعين به ولو فردا واحدا لا يعد خيرا عاما". وهو يعود بذلك إلى نقطة البداية وهي أن "الخير" هو النفع المتحقق لكل شخص منفردا.[٩] وهذا يختلف عن المفهوم الإسلامي للخير والعمل الخيري على ما سنرى. وقد نظر الفلاسفة المسلمون إلى مفهوم "الحقيقة" على أنه جزء من مفهوم الخير، وربطوا بين الباطل ومفهوم الشر[١٠] معتبرين أن الشر يُنتج الباطل، والباطل ينتج الظلم، والظلم مؤذن بالخراب.

ولكن الغياب شبه التام لفلسفة "الخير" عن الحضارة الغربية الحديثة لم يمنع ظهور المبادرات التطوعية (الخيرية). والسبب الرئيسي هو أن تركيز الثروة -حسب قوانين السوق في النظام الرأسمالي- يؤدي إلى طرد أعداد كبيرة خارج السوق، ومن ثم إحداث خلل في الدورة الاقتصادية (الإنتاج والاستهلاك والادخار والاستثمار والإنتاج... وهكذا)، والمبادرةُ بعمل خيري يهدف إلى الإسهام في معالجة هذا الخلل أمر مفيد لأصحاب رؤوس الأموال، فضلا عن أنه مفيد للاقتصاد الكلي؛ لأن من شأنه أن يدعم القوة الشرائية، وأن يستوعب مَن استبعدتهم قوانينُ السوق، أو أغلبَهم بطريقة أو بأخرى، ويعيدَهم إلى ميدان العمل والاستهلاك. ولتشجيع المبادرات الخيرية التي تحقق هذه الأهداف عمدت أغلبية البلدان الأوربية والأمريكية إلى تقديم حوافز ضريبية لأصحاب رؤوس الأموال لقاء ما يقدمونه من تبرعات. صحيح أن دوافع هذه المبادرات الخيرية مادية في أغلبها، وتهدف إلى التمتع بالإعفاءات الضريبية، إلا أن مقاصدها وأهدافها تصب في مصلحة المجتمع والدولة، وتسهم في رفاهية الأفراد والجماعات داخل الدولة أيضا، وإن كانت السنوات الأخيرة قد شهدت ميلا متزايدا للمنظمات غير الحكومية -وخاصة الأوربية والأمريكية- نحو توسيع نشاطها خارج حدودها الوطنية.

الخير والمقاصد العامة للشريعة

لن ندخل هنا في مضمون علم "مقاصد الشريعة" ولا في تفاصيله،[١١] يهمنا فقط أن نشير إلى أن الموضوع الرئيسي لهذا العلم هو البحث عن غايات الإسلام الكبرى من التشريع الذي جاء به في العبادات وقوانين المعاملات، وفي الآداب التي يَرى أنها جديرة بأن تُخص باسم "الشريعة"، والتي هي مظهر ما راعاه الإسلام من تعاريف المصالح والمفاسد والموازنة بينها وترجيح أحدها على الآخر؛ مما هو مظهر عظمة الشريعة الإسلامية بين بقية الشرائع والقوانين والسياسات الاجتماعية الهادفة في جملتها إلى تحقيق مقصد عام هو: "حفظ نظام العالم، واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه وهو نوع الإنسان. ويشملُ صلاحه صلاحَ عقله، وصلاح عمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه".[١٢] إذن فـ "المصلحة" هي النواة الصلبة لمقاصد الشريعة،[١٣] وأن هدف هذه المقاصد هو "جلب الصلاح ودرء الفساد، وذلك يحصل بإصلاح حال الإنسان".[١٤] ولابن القيم كلمة جامعة ودقيقة في بيان كيف أن مبنى الشريعة وأساسها هو مصلحة العباد في المعاش والمعاد، حيث يقول: "إن الشريعة عدل كلها، ورحمة كلها، وحكمة كلها، ومصالح كلها، وأي مسألة خرجت من العدل إلى الجَوْر، ومن الرحمة إلى ضدها، ومن الحكمة إلى العبث، ومن المصلحة إلى المفسدة، فليست من الشريعة في شيء، وإن أدخلت فيها بالتأويل".

وقد حدد المقاصديون عدة طرق للتعرف على المقاصد العامة للشريعة، منها أدلة القرآن الواضحةُ الدلالة، والسنة النبوية المتواترة، واستقراء الأحكام المعروفة عللها؛ "فإن باستقراء العلل حصول العلم بمقاصد الشريعة بسهولة، لأننا إذا استقرينا عللا كثيرة متماثلة في كونها ضابطا لحكمة متحدة أمكن أن نستخلص منها حكمة واحدة، فنجزم بأنها مقصد شرعي". وكذلك "استقراء أدلة أحكام اشتركت في علة بحيث يحصل لنا اليقين بأن تلك العلة مقصد مراد للشارع"، ومثال ذلك أن كثرة الأمر بعتق الرقاب دلنا على أن من مقاصد الشريعة حصول الحرية.[١٥]

وقد ذهب الإمام أبو إسحق الشاطبي إلى أن مقصد الشارع الحكيم يُعرف من جهات: إحداها مجرد الأمر والنهي الابتدائي التصريحي.. والثانية اعتبار علل الأمر والنهي، ولماذا أمر بهذا الفعل، ولماذا نهى عن هذا الآخر؟ والثالثة أن للشارع في شرع الأحكام العادية والعبادية مقاصدَ أصيلة ومقاصد تابعة... فمنها

منصوص عليه، ومنها مشار إليه، ومنها ما استقرئ من النصوص. على أن كل ما لم ينص عليه مما شأنه ذلك هو مقصود للشارع أيضا. والجهة الرابعة مما يعرف به قصد الشارع السكوت عن شرع التسبب، أو عن شرعية العمل مع قيام المعنى المقتضى له...".(١٦)

وكلما تأملنا في المقاصد العامة للشريعة سواء منها ما استنبطه الأولون، أو ما استنبطه المحدثون، وجدنا أنها تشكل منظومة متماسكة، وتقيم بنيانا يشد بعضه بعضا بحيث يصعب جدا أن نتصور مقصدا بمعزل عن بقية المقاصد؛ فكل منها يأخذ بيد الآخر، وكلها ماض على طريق مصلحة الآدمي، مسلما كان أو غير مسلم، ذلك لأنها كلها موثوقة برباط الفطرة الإنسانية، ومبنية عليها باعتبار أن الفطرة هي "وصف الشريعة الأعظم". وقد أصاب وأجاد العلامة ابن عاشور في شرحه لهذه الصفة المركزية من صفات الشريعة الإسلامية، واستخلص أن "السماحة" هي "أول أوصاف الشريعة وأكبر مقاصدها"، وأن حكمة السماحة في الشريعة هي "أن الله جعل هذه الشريعة دين الفطرة، وأمورُ الفطرة راجعة إلى الجبلة، فهي كائنة في النفوس، سهل عليها قبولها، ومن الفطرة النفر من الشدة والإعنات...".(١٧)

العمل الخيري مقصد عام للشريعة

وإذا سلكنا مسالك استنباط المقاصد العامة للشريعة التي قررها المقاصديون -وأشرنا إليها فيما سلف- وبحثا عن موقع العمل الخيري من هذه المقاصد، فسنجد أن "العمل الخيري" مقصد عام وثابت من مقاصدها، وأن له في ذاته مقاصد أخرى؛ بعضها يهدف إلى خدمة مقاصدَ عامةٍ من مقاصد الشريعة مثل مقصد الحرية كما سنرى، وبعضها يهدف إلى خدمة مقاصد فرعية ومتغيرة بتغير ظروف الزمان والمكان وأحوال المجتمعات.

فالعمل الخيري مقصد عام من مقاصد الشريعة،(١٨) وذلك بدلالة كثرة الأمر به والحض عليه ومدح فاعليه، والتحذير من مناوئيه في كثير من آيات الكتاب العزيز، وأحاديث النبي الكريم ﷺ. وقد ورد لفظ الخير ١٨٠ مرة في القرآن الكريم، وورد لفظ "أخيار"، و"خيرات" و"خيرة" ٨ مرات في سياقات متنوعة تربط "الخير" بجوانب أساسية من الحياة المدنية التي يعيشها الناس، كما ورد في بعض الحالات ضمن سياقات (أقل عددا) تربطه بالحياة الآخرة.

من الآيات القرآنية التي تحض على فعل الخير قوله تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(الحج:٧٧)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾(آل عمران:١١٥).

ومن الآيات التي تأمر بالدعوة للخير قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾(آل عمران:١٠٤)، وقال الرسول ﷺ: "من دل على خير فله مثل أجر فاعله" (رواه مسلم).

ومن الآيات التي تحث على المسارعة في عمل الخير قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾(المائدة:٤٨). ومن الآيات التي تثني على الذين يسارعون بعمل الخيرات قوله تعالى في وصف بعض مؤمني أهل الكتاب: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾(آل عمران:١١٤)، وفي وصف أهل الخشية من ربهم: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(المؤمنون:٦١).

أما عن السياقات التي ورد فيها ذكر الخير، فمنها ما ورد في القرآن عند الحديث عن العلم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(الصف:١١). ومنها ما ورد عند الحديث عن العمل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٧). وورد في سياق الحديث عن الكفاءة والمقدرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾(القصص:٢٦)، وفي سياق الحديث عن العدالة جاء قوله تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(الإسراء:٣٥)، وللحض على المنافسة والسبق في الأعمال المفيدة قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾(البقرة:١٤٨)، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ﴾(فاطر:٣٢). وقال رسول الله ﷺ: "سبق درهم مائة ألف درهم"، قالوا: وكيف؟ قال: "كان لرجل درهمان، تصدق بأحدهما، وانطلق رجل إلى عرض ماله فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها" (رواه النسائي). وفي سياق الحديث عن الإنفاق قال تعالى: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾(البقرة:٢١٥). وثمة مواضع أخرى كثيرة، علمنا من اطراد ورود الأمر بعمل الخير فيها، والحض عليه، والثناء على من يقومون به، أن العمل الخيري مقصد عام وثابت من مقاصد الشريعة الغراء.

وفي الفلسفة الإسلامية أيضًا نجد أن الفلاسفة والحكماء قد أدركوا هذا المعنى الواسع لمفهوم الخير. ومن ذلك قول ابن سينا الذي أوردناه، وفيه يؤكد على أن "الخير هو ما يتشوقه كل شيء ويتم به وجوده".

ونحن نلاحظ أن عمل الخير يطرح في النفس الارتياح والطمأنينة، ويطرح في المجتمع الاستقرار والسكينة، ويجعله مهيأ لعيشة هنيئة، ولحياة أفضل، ويجعله بحيث يسمح للناس بالإبداع والابتكار، والقيام بالمبادرات التي تستهدف تحسين نوعية الحياة والتغلب على مشكلاتها، والإسهام في سعادة أهلها.

تنظر الفلسفة الإسلامية إلى العمل الخيري نظرة عميقة إذ تربطه بمفهوم الحرية. فالعمل الخيري عندما يكون عطاء بلا مقابل مادي هو تحرير للنفس إما من قيد الأثرة وحب التملك، أو من قيود الآثام واجتراح الخطايا، أو من قيد الكبر واستعلاء النفس على الآخرين ممن يشاركونها الانتماء إلى أصل واحد "كلكم لآدم وآدم من تراب"(رواه أبو داود). في مقابل الفلسفة الإسلامية، نجد أن فلاسفة الأنوار في عصر النهضة من أمثال توماس هوبز، وجون لوك، وبنثام، وغيرهم، لا يتحدثون عن مفهوم "الخير"، ولا عن مفهوم "الخير العام"، لأن جل اهتمامهم كان منصبا على "اللذة"، و"المنفعة" الفردية، وكل شيء يجب أن يقاس بحاجة الفرد أولا وقبل كل شيء. يقول موريس كرانستون: "ليس لفكرة الخير العام أي مكان عند المفكرين السياسيين من أصحاب النزعة الفردية كهوبز ولوك وبنثام، لأن كل قضية يجب أن تقاس بحاجة الفرد".[19] ومرجعية قياس الخير والشر هو ذات الإنسان وتقديره للمنفعة التي تعود عليه في إطار عام من تبادل المنافع والمصالح الفردية.[20]

ويتعارض منطق العطاء بلا مقابل مع منطق السوق والكفاءة الاقتصادية في الرؤية الرأسمالية الحديثة عموما. ولكن التجربة الإسلامية تؤكد أن المنفعة ليست فقط حصيلة مبادلات مادية بين الأفراد والجماعات، وإنما يمكن أن تكون هذه المنفعة حصيلة فعل خيري بدون مقابل مادي. وهذه الممارسة تتطلب بطبيعة الحال الإيمان العميق بعمل الخير، كما تتطلب إدراك المضمون الواسع لمفهوم العمل الخيري الإسلامي الذي يبدأ بأقل الأشياء "شِقّ تمرة" كما في حديث للرسول ﷺ (رواه البخاري)، ويصل إلى كل ما يملكه الفرد من أموال.

نعود فنؤكد على ما خلصنا إليه وهو أن "العمل الخيري" مقصد عام وثابت من مقاصد الشريعة بدلالة تواتر الأمر به والحض عليه في آيات الكتاب العزيز، وفي أحاديث النبي ﷺ. وهو ليس فقط مقصدا عاما وثابتا من مقاصد الشريعة، وإنما له أيضا مقاصد أخرى بعضها يخدم مقاصد عامة وثابتة، وبعضها يخدم مقاصد فرعية ومتغيرة. وهذا موضوع لمقال آخر إن شاء الله. ■

(*) أستاذ العلوم السياسية، جامعة القاهرة / مصر.

الهوامش

(1) قاموس المصطلحات الاقتصادية، لمحمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ص:٢٠٥-٢٠٦.
(2) المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، تحقيق محمد سيد الكيلاني، مادة "خير".
(3) كتاب النجاة، لأبي علي بن سينا، ص:٢٢٩.
(4) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، ضبط وتحقيق حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٨١، ص: ١٦١-١٦٢.
(5) عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة، لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١، ص:١٠٥.
(6) الجليس الصالح، والأنيس الناصح، لسبط بن الجوزي، دار رياض الريس، لندن، ١٩٨٩، ص:٦٧.
(7) المعجم الفلسفي: معجم المصطلحات الفلسفية، لمراد وهبة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة: ص:٣٢٠
(8) راجع ما سبق بشأن مقصد العمل الخيري ومقاصده في الشريعة الإسلامية. ولا تزال نظرية العمل الخيري بعيدة عن أضواء البحث العلمي انطلاقا من أصولها المنصوص عليها في الكتاب والسنة، واستئناسا بالنماذج التطبيقية للأعمال الخيرية في ظل الحضارة الإسلامية.
(9) موسوعة العلوم السياسية، لمحمد محمود ربيع وإسماعيل صبري مقلد (محرران)، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٩٣و١٩٩٤، ١/ ٢٨٢-٢٨٣.
(10) مفهوم الحقيقة في الثقافة الإسلامية، ليحى هويدي، (مستخرج من حوليات كلية الآداب)، جامعة القاهرة، مجلد٢٩ ١٩٦٦، ص:١-٢.
(11) للحصول على بعض تفاصيل هذا العلم انظر على سبيل المثال: مقاصد الشريعة الإسلامية، لمحمد الطاهر بن عاشور، مكتبة الاستقامة بسوق العطارين، تونس، طبعة أولى، ١٣٦٦هـ.
(12) المرجع السابق، ص:٦٣.
(13) حول نظرية المصلحة في الشريعة الإسلامية انظر بصفة خاصة: نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي، لحسين حامد حسان، مكتبة المتنبي، القاهرة، ١٩٨١.
(14) مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص:٦٥.
(15) المرجع السابق، ص:٥١-٨١. وثمة طرق أخرى تحدث عنها العلامة ابن عاشور وهي: أدلة القرآن الواضحة الدلالة، والسنة المتواترة.
(16) الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحق الشاطبي، وعليه شرح شيخ علماء دمياط الشيخ عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ب.ت، ٢/ ٣٩٣-٤٠٩.
(17) مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص:٥٦-٦٣.
(18) تحدث الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عن مقاصد التبرعات، وهي تندرج في العمل الخيري بلا شك، ولمزيد من التفاصيل انظر كتابه: مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص:٢٠٤-٢١٠. وتختلف رؤيتنا لمقاصد العمل الخيري بعض الاختلاف مع ما قدمه الشيخ رحمه الله.
(19) المصطلحات السياسية، لموريس كرانستون (محرر)، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٦٩، ص:٩٠.
(20) موقف الدين من العلم، لعلي فؤاد باشكيل، ترجمة: أورخان محمد علي، دار الوثائق، الكويت، ب.ت، ص:٨٨ حيث ينتقد النظرة النفعية في الفلسفة المادية الوضعية.

الروح وميلاد الحضارة

أ.د. عبد الحليم عويس*

دائما يُثبت التاريخ أن الحضارة لا تولد إلا بالروح، ويُثبت -أيضا- أن الحضارة تزدهر بالعقل، فالروح أولا والعقل ثانيا. قد يحدث العكس، فتُولد الحضارة بروح هامدة وعقل متألق.

وهنا يمشي العقل وحده، يمشي مسكينا عاريا من مقومات البصيرة الكونية وما وراء الكونية. إنه عقل لا تدثّره حضارة ولا يتلفّع بأردية الوجدان المضطرم بالحبّ، ولا الضمير الحيّ، ولا الإيمان الحارّ، ولا نبضات القلب الوجل من خشية الله. إنه عقل مسكين يمشي -وحده- عندما يفقد الروح، يمشي بلا قلب فقيه ولا عين بصيرة ولا أذن سامعة.

إن العقل -في غيبة الروح- ليقفز من مرحلة الروح الضرورية للميلاد الكامل الصحيح إلى مرحلة الازدهار.

لكن أي ازدهار يا تُرى؟ إنه الازدهار "المادي" المحصور في الإبداع "الشيئي" الذي أحرزته التراكمات الكمية المعرفية عبر رحلة العقل في التاريخ من المركبة البدائية إلى السيارة إلى الطائرة، من بريد الرسائل إلى البريد الألكتروني، من الغذاء البسيط إلى الغذاء المركّب والمعلّب، من بيت الطين إلى عمارة الخمسين طابقا، ومن البساطة الداخلية في البيوت إلى بيوت "السوبرلوكس".

لقد قدّم العقل ازدهارا ماديا وشيئيا لا ريب فيه. لكنه -مع كل ذلك- لم يستطع أن يقدم "البديل" عن "الروح". وكلما ارتفع منسوب عالم الأشياء، هبط منسوب الروح، وفقد الإنسان كثيرا من أركان سعادته. لقد تقدم عالمه الخارجي، أما عالمه الداخلي فهو يتداعى في كل يوم آيلاً للسقوط دون أن تكون هناك تيارات روحية قادرة على إيقاف الانهيار ومنع السقوط. إن كل الوسائل الخارجية تفقد فاعليتها ما دام داخل الإنسان متناقضا، يتآكل روحا وقلبا، ويعيش تعاسة لا تنفع في علاجها الماديات الخارجية: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾(فاطر:٢). لقد أصبح العقل ومنجزاته الشيئية والبعيدة عن الروح وثنا يعبد

نفسه ويعبد الأشياء.

إن مفتاح سعادة الداخل لا يقوم إلا على تغيير الداخل بوسائل العلاج الداخلية: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١). إن العقل لا يستطيع تقديم العون للقلب إذا كان هذا العقل مريضا. لقد تحول هذا العقل من عابد لله إلى معبود يعبد الأشياء -في الوقت نفسه- ويؤله المادة والثروة والترف الذي لا حدود له.

ولقد تضخّم هذا الإنسان الذي يقوده العقل وحده، فظن نفسه صانعا وليس مخلوقا لله. لقد نظر إلى نفسه على أنه وسيلة وغاية، وأن الزمان هو حدوده الزمانية، ولا زمان خارج زمانه، وأن مكانه الدنيوي هو المكان الذي لا مكان غيره. فلا آخرة ولا بعث ولا جنة ولا نار.

في مكة والمدينة عاش الرسول ﷺ يصنع الإنسان الذي تقوده الروح. ذلك الإنسان الذي جلس بين يدي الرسول ﷺ في دار الأرقم، وفي شعاب مكة، وفي المسجد النبوي. لا ليتلقى علما مستقلا بذاته، بل علما ممزوجا بالروح. لقد جلسوا بين يديه وكأن على رؤوسهم الطير، خجلين من توجيه السؤال إليه، لأنهم يعيشون طعم الحب وحلاوة الإيمان وألق الروح وارتفاعها صعودا إلى الأفق الأعلى: حتى لكأنهم -كما ذكروا للرسول- بين يديه كالملائكة الذي لا يعنيهم إلا الرحيق المختوم، والسُلاف النقي، تاركين اللهث الكمي المعرفي العقلي لوقته، آخذين منه ما تحتاج إليه تكاليف دينهم ومقتضيات المنهجية النبوية لحياتهم. إنهم -أبدا- لم ينسوا قيمة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١)، ولا قيمة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٨٢)، لكنهم أدركوا أن القراءة لابد أن تكون باسم الله، والعلم لابد أن يكون مرتبطا بخشية الله، وآمنوا بأنه لن تتحقق الغاية من الروح والعقل إلا حين تكون "الروح" أولا والعقل ثانيا. ولقد أدركوا أن الخطورة تكمن حين يقف العلم وحده، فلا يحميه سياج الإيمان، يحميه من نفسه ومن كبره ومن جبروته وطغيانه، ومن تدميره حين ينفصل عن الروح، وعن "اسم الله" وعن "خشية الله".

وعندما حانت لحظة إعطاء العقل -مع إفرازاته المادية- حقه، وجّه الرسول إلى ذلك، في غزوة بدر (٢ هـ) وجعل فداء الأسير أن يعلّم بعضَ أبناء المسلمين القراءة والكتابة. وكان ﷺ من قبل قد وجه بعض صحابته إلى معرفة لغات بعض البلاد توطئة لإرسالهم (٦ هـ) إلى ملوك العالم يدعوهم للإسلام، مدشنا المرحلة العالمية الكبرى للدعوة والحركة. لكن الروح كانت الوقودَ الأول. لأنها تتجاوز حدود العقل الذي تحكمه قوانين قد تكون كافية في الظروف العادية، لكنها غير كافية لإطلاق الدولة والدعوة عالميا.

والسؤال هنا، أيهما، الروح أو العقل هو الذي دفع أبا بكر لإنفاق كل ماله؟ إن الشريعة أو العقل لا يُلزمانه بذلك.

أيهما، الروح أو العقل دفع عمر لإنفاق نصف ماله، ودفع عثمان للإنفاق بسخاء كبير على الدعوة في مراحلها الأساس؟

وأيهما، الروح أو العقل، جعل الأنصار يستقبلون إخوانهم المهاجرين، ليس بما يجودون به، وليس بما توجبه فريضة الزكاة أو الأعراف العامة، وإنما يستقبلونهم بحب وإيثار يفوق حب الشقيق لشقيقه: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر:٩).

إن كل النوازع البشرية قد سقطت في هذه اللحظات العلوية، لحظات قيادة الروح، لدرجة أن يقول الأنصاري سعد بن الربيع لأخيه المهاجري عبد الرحمن بن عوف: "خذ شطر مالي، ولي زوجتان تَخَيَّرْ واحدة منهما أطلقها لك ثم تتزوجها".

ولو كان العقل هو القائد الأول هنا لما سمح لهذا السموّ أن تتحقق، لأنه محكوم بموازين المصلحة والمواطنة وتبادل المنافع، قبل موازين الحب والإيمان والزهد والإيثار والعشق للدين الجديد.

لقد أدركت فطرة الأنصار النقية أن المهاجرين مروا بمرحلة تمثل درسا على الأنصار أن يفهموه ويرتفعوا إلى مستواه. فهؤلاء المهاجرون -قد ضحوا- بوطنهم على حبهم له، وضحوا بدُورهم وأموالهم، حتى إن صهيبا الرومي يضحي بكل ماله ليتركه المشركون يهاجر بدينه ليلحق بالرسول، فاستطاع الأنصار -بالروح- أن يرتفعوا إلى المستوى النفسي والوجداني والإيثاري المطلوب، مؤكدين أن الجماعة الإسلامية في المدينة كيان واحد -أنصارا ومهاجرين- لا تفرقهم عنصريات جنسية ولا عصبيات وطنية ولا صراعات مادية. ومن ثم جاءت "المؤاخاة" التي أقامها الرسول بينهم تتويجا لعلاقة روحية وقلبية وإيمانية لا يستطيع البشر أن يرتقوا إليها.

وهكذا كان دور الروح الذي انبثق منها -وفي ظلالها- التطور العقلي، فولّد العلم -بالتالي- ابنا شرعيا للإيمان، واتجه إلى الخير الإسلامي الإنساني العام، وتوّجه القرآن بتلخيص الرسالة المحمدية في هذه الوظيفة الخالدة التي أهملتها الحضارات والأديان لاسيما الحضارة المادية المعاصرة. إنها وظيفة جيل الصحابة التي استقوها من وظيفة قدوتهم وإمامهم ﷺ والتي حددها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧). ليست الروح التي نتعامل معها -في حديثنا هذا- هي فقط الروح التي تحدث عنها ابن سينا في قوله:

هبطتْ إليك من المحلّ الأرفع | ورقاءُ ذات تعززٍ وتمنّع
محجوبة عن كلّ مقلة عارف | وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كرهٍ إليك وربما | كرهت فراقك وهي ذات تفجع
أنفت وما أنست فلما واصلت | ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنّها نسيت عهوداً بالحمى | ومنازلا بفراقها لم تقنع

ولا هي -فقط- تلك الروح التي تحدّدت اصطلاحا بأنها: ملكة لطيفة غير مادية يُمدك الله بها لتحتفظ بحياتك، فهي سرّ وجودك وبقائك، وأيضا يمسكها عنك عندما تنتهي حياتك. قال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الزمر:٤٢). إنها الروح التي قد يتوافر لها بعض ذلك. لكنها -كما يتعامل معها القرآن- شيء أقوى وأعم من ذلك بكثير.

لقد خلق الله آدم من روحه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(الحجر:٢٩). وأمرنا أن لا نيأس من روح الله: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(يوسف:٨٧).

فنحن نعيش -كما تدلنا الآيات- بإشعاعات الروح. فلقد خلقنا الله -ابتداءً- من روحه التي نفخها في أبينا آدم، ثم نفخها في مريم أم عيسى عليهما السلام، ونفخها في كل إنسان يولد في الأرض. فكلنا من روح الله. وعندما نوضع في امتحانات صعبة، فإن علينا أن نلجأ إلى رَوح الله طلبا للنجاة. وإذا يئسنا من اللجوء إلى رَوح الله التي منها أوجدنا وخلقنا، وبها استقام كياننا، خرجنا من دائرة الإيمان، لأنه ﴿لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(يوسف:٨٧).

ولكن في أساليب أخرى يطلق الله "الروح" على رسوله الأعظم (جبريل): ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾(النحل:١٠٢). كما يطلق الله مصطلح الروح على القرآن نفسه، ليتم الله به بناء الإيمان ومعمار اليقين في الأرض، ويمنح به المؤمنين نور البصيرة الهادي إلى الصراط المستقيم. ولم يكن محمد ﷺ قبل هذا القرآن على دراية بأيّ كتاب، ولا بشيء من معاني الإيمان: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الشورى:٥٢).

فالروح مصطلح جامعٌ ذو إشعاعات ربانية تضيء جوانب الحياة، بل وتنشئ الحياة، وتحفظ الحياة بعيدا عن اليأس، وتعطي للمؤمن طاقة فعالة وإرادة إيجابية تجعله سريع الاستجابة لأوامر الله، قويّ الإرادة، يملك نفسه وهواه ويطوعهما لأوامر الله ولإشعاعات الروح، ولا تتملكه نفسه أو يتحكم فيه هواه.

والروح نِعْمَ القائد للعقل حتى لا يعبد نفسه، ونِعْمَ الحامي للعلم حتى لا تودي به سلبياته. وذلك عندما ينقلب العقل وثنا، ويصبح العلم هدما، وينهار المعمار البشري من افتراس العقل للإيمان ومن عبثية استخدامه العلم وغياب الروح المحددة للفواصل الواضحة بين الحق والباطل. وعندما يمضي الإنسان شبه أعمى في طريقه إلى الانهيار.

لقد أقام الرسول ﷺ دولة الهجرة في المدينة على قاعدة الروح من الإيمان، ومع ذلك أطلق عليها بعض العلماء المسلمين "دولة الفكرة". وقارنوا بينها وبين دولة العقد الاجتماعي التي تخيلها "جان جاك روسو". والفرق كبير بين الدولتين. فالدولة الإسلامية عقد رباني وإنساني تمتزج فيه روح الوحي مع قوانين الدولة. وصحيح أن الدولة الإسلامية الأولى تضمنت عقدا اجتماعيا تمثل في "المؤاخاة" بين المسلمين، والصحيفة التي تحكم الوشائج وفاعلية القانون بين المسلمين وغير المسلمين من مواطن المدينة.

لكن لا يجوز لنا أن ننسى أن الدستور الحاكم بهذه الدولة بكل شرائحها "القرآن"، وأن قائدها كان هو رسول الله محمد ﷺ، وأن العقد الذي ظهر فيها لم يتم كما قام عقد "روسو" لإقامة التوازن بين الحكام والمحكومين بعد أن طغى الحكام. فكانت نظرية العقد الاجتماعي مجرد ردّ فعل بشري، مجرد من كل معاني الروح، وكانت أهدافه سياسية وقانونية ومصلحية بحتة. أما مجتمع المدينة فهو مجتمع التكافل الاجتماعي الذي

أتحسب سموك إلى عوالم الروح ممكنا وأنت لصيق التراب واللحم والدم. هيهات.. هيهات.. فما لم تصبر على تحررك منها فلن تطال بغيتك وتصل إلى هدفك.

* * *

يسمو على القانون. وكان مجتمع الحب والتراحم والعدل بين الجميع. وعندما درس بعضهم نظرية "روح القوانين" (نظرية فصل السلطات) لـ"مونتسكيو"، ظنوا أنها إطار كفيل بإيجاد روح إيجابية فاعلة منطلقة من الروح الموروثة التي صنعتها تجربة الأمة ومسيرتها التاريخية. وهنا نلحظ أن "الروح" قد انبثقت من تجارب تاريخية بكل ما يمكن أن تكون قد حملتها من رواسب وتناقضات / مناقضات؛ وأن هيمنة روح المجتمعات يمكن أن يسيء إلى الوعي الفردي. بينما في دولة الفكرة والعقيدة أو "الأمة الوسط الشهيدة على الناس" تحكم الثوابت الربانية. فثمة التوازن بين روح الفرد والمجتمع، وثمة الثوابت العليا المتحدة من الروح التي كوّنها الإيمان، إلى جانب التجارب التي يمكن أن تغربَل وتصفّى في ضوء الثوابت والمقاصد الشرعية.

وثمة شاهد قوي يستدل به المؤرخون على فعالية الروح الإسلامية في المدينة حين يقارنون بين هذا المشهد نفسه في موقفين مختلفين حين حاولت الولايات المتحدة الأمريكية تطبيقه في بداية القرن العشرين.

ففي المدينة المنورة نزل الوحي متدرجا في تحريم الخمر. فلما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾(المائدة: ٩٠-٩١)، سرعان ما استجاب الصحابة المشحونون بالروح الإيمانية فقالوا "انتهينا يا رب"، وألقوا بكل ما عندهم من الخمور حتى سالت بها طرقات المدينة.

أما تجربة أمريكا في تحريم الخمور في مطلع القرن العشرين حين أنفقت في منعها عدة مليارات من الدولارات وتحركت جيوشها الإعلامية والطبية لكشف أضرار الخمور، بل وغيّرت الدستور فنصّت على تحريم الخمر. ومع ذلك فشلت فشلا ساحقا ووقعت مقاومة شعبية كبيرة، واضطرت أمريكا لإعادة إباحتها وإلغاء تحريمها من الدستور. والفرق بين المشهدين واضح، فهو يتجلى في وجود الروح الإيمانية والإرادة القوية في مشهد المدينة، وغياب كل ذلك في الموقف الأمريكي.

وقد كنت أشعر بنوع من الهروب عندما يكتفي بعضهم بالمقارنة بين موقف الصحابة المؤمنين كل الإيمان، وموقف الأمريكان العلمانيين أو مذبذبي الإيمان؛ وكنت أرى أنه من الضروري المقارنة بين موقف المسلمين أنفسهم في حقبتين تاريخيتين مختلفتين مع أنهم جميعا كمسلمين يؤمنون بأركان الإيمان الستة وأركان الإسلام الخمسة ويصلون ويحجون ويعتمرون. ومع ذلك فإن مسلمي عصرنا هؤلاء مع إسلامهم الخامد الروح الفاقد الإرادة قد يشربون الدخان والشيشة بعد الفطور في رمضان، وبعد الخروج من الصلاة في الحرم والمسجد النبوي، مع كل ما عرفوه عن تحريم الدخان، وأضراره الطبية والاقتصادية على الأفراد والمجتمعات.

لقد كان الفيلسوف والمهندس الجزائري "مالك بن نبي" رائعا في استفادته من مؤرخنا العظيم عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨ هـ) حين أبرز ابن خلدون دور النبوّة في صناعة الإنسان المؤمن الإيجابي. فلا حضارة بدون عقيدة، وبدون إنسان فطري بسيط كعمر بن الخطاب، ذلك المؤمن الحق الذي كان ينام تحت شجرة في الطريق وهو أمير المؤمنين. ومن هذا الإنسان يأتي دور الازدهار العمراني الذي تنذر مرحلةُ ازدهاره البالغة حدَّ الترف والدعة في الحياة بالدخول في مرحلة الانهيار.

فعلى هدي ابن خلدون كتب مالك بن نبي عناصر الحضارة الثلاثة المحقِّقة لشروط النهضة، وهي: الإنسان أولا، والزمان ثانيا، والتراب ثالثا، وتأتي العقيدة قبل ذلك ومعه كجامع مازج لهذا المركّب، حتى تصل به إلى بناء الفرد القادر على الإقلاع الحضاري وصناعة الحضارة.

إنها الروح أولا وإنه العقل ثانيا، وبالروح والعقل معا ينطلق قطار الحضارة الإسلامية فوق قضبان التاريخ، شريطة أن تكون الروح أولاً. ■

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر.





مجلة حراء
تحتفل بعامها الرابع في القاهرة

أ.د. محمد عمارة*

عندما يسمع المرء كلمة "حراء" يقفز إلى ذهنه وعقله وقلبه ذلك الغار المكي الذي نزل فيه الروح الأمين على قلب الصادق الأمين بأولى آيات القرآن الكريم فكانت همزة الوصل مع تاريخ النبوات والرسالات بعد فترة من الرسل والرسالات.

ومنذ ثلاث سنوات حملت ذاتَ الاسم "حراء" أولُ مجلة تركية ناطقة بالعربية "لغة القران الكريم" لتصل تركيا الجديدة بتاريخها الإسلامي الجديد بعد قطيعة عاشها الأتراك إزاء هويتهم وتاريخهم وجوارهم وإزاء العربية وحرفها الذي هو من فنون الجمال.

وفي القاهرة "قلب العروبة والإسلام" أقيم في ٢٠٠٨/١١/١٢ احتفال ثقافي لمجلة حراء التي ازدانت صفحاتها منذ صدورها بأقلام العلماء والمفكرين الذين مثلو أغلب بقاع العالم الإسلامي حتى لقد أحيت بذلك معنى الهوية الإسلامية الجامعة للأمة ولواء الإسلام.

وإلى حضور هذا الاحتفال وجه الراعي لإصدار هذه المجلة الداعية التركي العلامة الأستاذ "فتح الله كولن" رسالة بليغة وجامعة جاءت قطعة ذهبية من أدب الرسائل وعيون المراسلات.

لقد تحدث فيها بتواضع العلماء العظام عن مصر "بلد الحضارة الشامخة والتاريخ المجيد"، بلد الكيل الكريم والخير العميم وموطن خزائن العلم والأدب وكنانة الإسلام وحصنه المنيع، صاحبة الدور القيادي الذي أداه رجالها قديما وحديثا في نصرة الإسلام ونشره في كثير من بقاع الأرض، وفي نهضة التجديد في مجال الإصلاح الديني، والريادة في إحياء اللغة العربية والشعر والأدب، والسبق في النجاح الساحر بمجالات النشر والصحافة والإعلام.

هكذا تحدث العلامة "فتح الله كولن" عن مصر في رسالته إلى المحتفلين بمجلة "حراء". ثم تحدث إلى علماء مصر عن هذه المجلة فقال: "لقد جئناكم بمجلتنا الفتية "حراء" نضعها



بين أيديكم، عساها تلقى الاحتضان الحنون بصدركم والمدد الكريم من أقلامكم، فهي وليدة صغيرة رجعناها إلى أمها كي تقر عينها ولا تحزن، فعسى الله أن يلقي عليها محبة منه فيكفلها منكم كتاب".

ثم تحدث الداعية الكبير عن ضرورة التواصل الفكري بين الأتراك والمصريين فقال: "إننا ونحن بين أيديكم نصل رحمنا، ونجدد عهدنا، ونحيي أخوتنا، فدماؤنا واحدة وحديثنا واحد وتاريخنا واحد، ومن ثم فأشـــواقنا واحدة، وليس ثمة رابط أوثق في تجديد الأخوة التي بيننا من رابط الكلمة المؤمنة التي تفتح القلوب، وتحيي، النفوس وتجدد صلتها بالله".

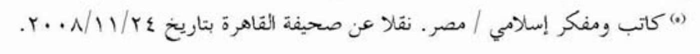
ثم تحـــدث –حفظه الله– عن فريضة التواصل العلمي بين أبناء الأمة لتبادل الخبرات وتقريب الرؤى فيما يتعلق بتجديد الدين وعلاج جراح الأمة ومحاربة اليأس وتوجيه الجيل إلى الاسترواح من روح الله اعتمادا على المنهج القرآني القائم على الوسطية والاعتدال.

ثم ختم رسالته بالإشـــارة إلى دور العلماء المسلمين إزاء الإنسانية: "فشعوب العالم في حاجـــة إلينا إذا نحن مثلنا ديننا وحضارتنا حق التمثيل. وإنه لا عذر لنا اليوم في عدم التواصل مع الآخر وعرض نموذجنا الإســـلامي في أســـواق العالم الثقافية. بيد أن أولى الخطوات أن نتواصل نحن فيما بيننا، وهذا هو دور "حراء" في تجديد الأخوة بين العرب والأتراك وفي إحياء لغة القرآن الكريم وروحه وثقافته".

هكذا كان الاحتفال بمجلة "حراء" مناســـبة طيبة لسماع هذه الرسالة من العلامة "فتح الله كولن" التي جاءت نموذجا من عيون الرســـائل التي تســـتمد جمالها من بلاغة القرآن الكريم. ■



(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر. نقلا عن صحيفة القاهرة بتاريخ ٢٤/١١/٢٠٠٨.







المنشور

فتح‌الله گولن

الإخلاص واليقين

لــو أن المرء طلب الإخلاص واليقــين في اليوم مائة مرة فما هو من المكثرين. لكن كيف ينبغي أن يكون الطلب؟ دعاءَ قول أم دعاءَ فعــل؟ أرى أن دعاء الفعل هو الأصل، لكنه لا يمنع من دعاء القــول. أما الأفضل فدعاء قول يلازمـــه دعاء فعل. وإذا كان لنصيحتي مكانة عندكم، فنصيحتي الأولى والأخيرة هي أن تطلبوا مرضاة الله تعالى. فقد تنســون طلب الجنة في دعواتكم أو الاستجارة من النار، لكن حذار أن تنسوا طلب الإخلاص واليقين بإلحاح، لأن الأمر لا يحتمل النسيان. إذا تلاشى الإخلاص وضاع اليقين لدى الفرد فقد تدحرج في فراغ مخيف، إذ أقواله لا تتجاوز حنجرته، وأفعاله لا تعبر عن أي معنى نبيل.

محاسبة

قلتَ فأجــدتَ، وكتبــتَ فأبدعتَ، وهممــت فنلت كل مطلوب... عندئذ بادر إلى محاســبة نفســك فورا، إذ قد يكون ذلك اســتدراجا. ومن يدرى فقد ينفتح مع النجاح بابٌ يقذِف بك في متاهات العجب والكــبر والرياء، وينغلق معه بابُ "كن بين الناس فردا من الناس". لقــد ارتعد الأصفياء فرقا من الخيبة والفشــل، لكن خوفهم من النجــاح كان أعظم وأجلّ. زرعوا الأرض زرعا، فما إن اخضرّت وأثمرت وطابت حتى أســرعوا يبكون، وأنفســهم راحوا يحاســبون، وقالوا وهم وجلون "ماذا جنينا على أنفســنا حتى اهتزت الأرض وربت وأنبتت وازّينت؟ رباه! أيكون ذلك استدراجا من حيث لا نعلم؟"

خلو البال من الهم

كان فخر الإنسانية ﷺ قبل البعثة المباركة وبعدها مفعما بالهمّ متلفعا بالغم إزاء ما يرى من شــقاء مادي وضياع روحي يسود البشــرية كلها. فالروايات تقول إنه كان قبل النبوة يعتزل الناس أحيانا ويخلو إلى نفســه متأملا في مشاكل الإنسانية المأزومة. أما عن مبلغ همه بعد أن تحمل مهمة الرسالة فينبه إليه القرآن العظيم قائلا: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَــكَ عَلَى آثَارِهِــمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَــفًا﴾(الكهف:٦)، أليست الآية ذات مغزى عميق يهز القلب هزا ويؤثر في صميم الوجدان؟ إن أخطر همنا اليوم خلونا من الهم. الهم الذي يسلبنا النوم ويقض مضجعنا ويتركنا مؤرقين عدة أيام في الأسبوع ونحن نسعي جاهدين نغرس حقائق الإيمان والقرآن في القلوب ونتطلع إلى أن يســتجيب لها ضمير المجتمع الإنســاني. وإذ لم نأرَق بمثل هذا الهم اليوم، فسوف تنهمر علينا مهمات تحرمنا النوم غدا. والحق أقول؛ يكاد المرء يتفطر أســفا حينما لا يرى من يتفطر هما.

أريد مجانين

تشــبّع بحب الله إلى حد الجنون، لا يغرينّك عنه حســن ولا يفتننك عنــه جمال، ارقَ على كل المعادلات وتســامَ على كل المقاييس، ارفع شعار الثورة ضد كل مألوف، واهتف كما هتف الرومي "هلمّ إليّ يا إنسان"، ثم ادفن نفسك في غياهب النسيان. نــاد كما نادى بديع الزمان "وا إنســانيتاه"، ثم امضِ ولا تفكر بسعادتك الشخصية. أجل، إنس رغد الحياة، انس البيت والولد، واسلك درب أهل السمو الواصلين لتكون من الناجين.

مجانينَ أريــد، حفنةً من المجانين... يثورون على كل المعايير المألوفة، يتجاوزون كل المقاييس المعروفة. وبينما الناس إلى المغريات يتهافتون، هؤلاء منهـــا يفرون وإليها لا يلتفتون. أريد حفنة ممن نســبوا إلى خفة العقل لشدة حرصهم على دينهم وتعلقهم بنشر إيمانهم؛ هؤلاء هم "المجانين" الذين مدحهم سيد المرسلين، إذ لا يفكرون بملذات أنفســهم، ولا يتطلعون إلى منصب أو شهرة أو جاه، ولا يرومون متعة الدنيا ومالها، ولا يفتنون بالأهل والبنين... يا رب، أتضرع إليك... خزائن رحمتك لا نهاية لها، أعطِ كل سائل مطلبه، أما أنا فمطلبي حفنة من المجانين... يا رب يا رب... ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.



تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار

يا رجل القلب

كم مسافات قطعتَ، وفي آفاق "الماوراء" حلّقتَ،

ورضا الحق ابتغيتَ، ما ونيتَ ولا تعبتَ ولا فترتَ،

والريحَ سابقتَ، والأرضَ طويتَ، وسنا الإيمان ارتديتَ...

حتما إلى هدفك ستصل، ومبتغاكَ ستنال...

* * *

